ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ( القرآن الحكيم)

# الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

**العـــــدد : ١٢ ، السنـــــة : ٤٧**

**ذوالحجة ١٤٤٤هـ ، يونيو – يوليو ٢٠٢٣م**

تحت إشراف

**فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني**
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

**محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**
الأستاذ بالجامعة

**الاشتراكات**

- ثمن النسخة: ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

**عنوان المجلة على الانترنت**
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

**طالعها الآن**

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

**المراسلات**

**رئيس التحرير مجلة الداعي**
**دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي ( الهند )**
**الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤**

**Chief Editor**
***AL – DAIE***
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
( U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
**Ph. : (00-91-1336) 222429**
**Fax : (00-91-1336) 222768**

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

# المحتويات


**كلمة المحرر**

| | | |
|---|---|---|
| ♦ الحج منفعة دينية ودنيوية | التحرير | ٣ |

**كلمة العدد**

| | | |
|---|---|---|
| ♦ الحج تزكية للنفس وتطهير للقلب | محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري | ٤ |

**الفكر الإسلامي**

| | | |
|---|---|---|
| ♦ من ظلال التفسير | العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله | ٨ |

**دراسات إسلامية**

| | | |
|---|---|---|
| ♦ الإسلام والأدب | الأستاذ عزت العزيزي | ١٣ |
| ♦ من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند | الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله | ٢١ |
| ♦ وجوب التقليد الشخصي وما يترتب على تركه من .... | الشيخ الكبير المربي الجليل العلامة أشرف على التهانوي | ٢٥ |
| ♦ الحج .. ووحدة الأمة | الشيخ الدكتور يوسف جمعة سلامة | ٣٢ |
| ♦ الحج أيام زمان ... | الأستاذ غفران الناشف – سوريا | ٣٥ |
| ♦ مواقف خالدة بين العلماء والخلفاء | الأستاذ إحسان النمر | ٤١ |

**إصدارات حديثة**

| | | |
|---|---|---|
| ♦ كتاب «مسيرة دارالعلوم ديوبند عبر مئة وخمسين عامًا» | | |
| ♦ كتاب «مسلم الثبوت»: دراسة وتحقيق. | الأستاذ عاذب أشرف الأعظمي | ٤٨ |

**إشراقة**

| | | |
|---|---|---|
| ♦ ولا يمدح الرجل إلا بما فيه | أبو عائض القاسمي المباركفوري | ٥٦ |

# كلمة المحرر

## الحج منفعة دينية ودنيوية

شرع الله تعالى الشرائع والأحكام، و وضع لها أهدافًا نبيلةً وأغراضًا ساميةً، يحققها المسلم إذا قام بها، وأداها حق أدائها. فمن هذه الشرائع والأحكام حج بيت الله تعالى، الذي يدخل في العبادات المالية والبدنية معًا؛ فإن المرء يضحي بماله، وبنفسه ووقته في سبيل الحج، ويفارق أهله وأحبته وذويه. كما أنه يشكل أعظم تجمع إسلامي، وأكبر مهرجان للأمة الإسلامية التي تتجمع على أرض واحدة من شرق الأرض وغربها، وشمالها وجنوبها، في لباس مماثل، يحملون أولادهم وأزوادهم، ويقطعون مسافات تقدر بالآلاف من الأميال، شعثًا غبرًا، وعلى ألسنتهم كلمة واحدة: لبيك، اللّٰهم لبيك....

ونبَّهت عدد من آيات القرآن على أهداف الحج وغاياته السامية. فيقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ [الحج:٢٧-٢٨]. وأهم هذه المنافع ما وعده الله تعالى على لسان نبيه إبراهم عليه السلام، ثم أعظم ذلك كله تجمع الأمة الإسلامية على صعيد واحد، فيستفيد بعضهم من بعض ما يكمل به إيمانهم، ويقوى به يقينهم. ويحسون كأن قد حل عنهم قيد الزمان والمكان، واجتمع فيه الزمان كله والمكان كله، فالهند هنا، والسند والعراق، وفارس، والروم و إفريقية، والمغرب الأقصى والأدنى هنا، فيشعرون بأن موطنهم الحق هنا، لا البلد الذي شهد ولادتهم، ومدارج صباهم، وملاعب طفولتهم.

والمنافع التي ينالها الحاج في الحج أنواع متنوعة، و وجوه مختلفة: منافع دينية ومنافع دنيوية، فالحج مؤتمر عالمي، وموسم عبادة وتجارة، وموعد اجتماع وتلاقٍ وتعارفٍ، وتعاون وتناغم وتنسيق. والحج فريضة يجتمع فيها الدين والدنيا، ويلاقي فيها ذكريات الماضي القريب والبعيد، ويتوافد إليه أصحاب الأعمال والتجارات، فيجدون لبضاعتهم سوقًا قائمة، سوقًا يجبى إليها ثمرات كل شيء، من أقصى الأرض وأدناها، ويتقاطر إليها الحجيج من كل بلد وقطر، يحملون إليها من خيرات بلادهم ونتاجهم ما تفرق في أرجاء العالم، وفي الأراضي المختلفة. يقول الله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة:١٩٨].

فالحج موسم تجارة، ومعرض نتاج العالم بنوعيه الطبيعي والصناعي. وقبل ذلك كله الحج موسم عبادة تتزكى فيه النفوس، وتطهر فيه القلوب، ويزداد الحاج فيه شعورا بالقرب إلى الله تعالى، وصفاء لروحه.

فالمنافع تشمل النوعين: المنافع الدنيوية والمنافع الدينية. ومن الأول ما يصيبونه من البدن و الذبائح، قال تعالى: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الحج:٣٦]. وقال تعالى: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣].

وأما المنافع الدينية فلاتكاد تحصى، وأعظمها وأجلها: غفران الذنوب؛ فإنه يعود كيوم ولدته أمه، نقيًّا طاهرًا من الذنوب، إذا ما اتقى الله تعالى وخافه في حجه، فامتثل أوامره، واجتنب نواهيه. عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتى هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كما ولدته أمه»[صحيح مسلم:١٣٥٠]. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة التاسعة إلا الربع من الليلة المتخللة بين يومي الجمعة والسبت:٢١-٢٢ /شوال ١٤٤٤هـ=١٢-١٣/مايو٢٠٢٣م)

# الحج تزكية للنفس وتطهير للقلب

الحج فريضة إسلامية كبرى، وأحد أركان الإسلام الخمسة، يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]. وقد تمالأ العلماء المسلمون على الاستدلال على وجوب الحج بهذه الآية التي نزلت سنة ثلاث من الهجرة. وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»[البخاري:٨].

والناظر في الأعمال والتشريعات الإسلامية يرى بوضوح أن الله تعالى شرع لعباده أحكامًا ومجاهدات عدة لتزكية النفس وتطهير القلب فضلًا منه و رحمةً بهم. والصلاة والصوم والأضحية و نحوها؛ كل ذلك يدخل في مجاهدات النفس هذه. فالمجاهدات على نوعين: نوع يغلب فيه التعقل، والثاني ما لايغلب فيه التعقل؛ بل يغلب فيه الطبيعة والتعبد. والسر في هذا التنوع أن حاصل المجاهدات قهر منازعات النفس أي قهر القلوب التي تنازع في الطاعة، وكبح جماحها. ثم إن المنازعات أيضًا على أنواع، منها: ما يختص بقهره مجاهدة، وأخرى ما يختص بقهره مجاهدة أخرى. فمثلا الصلاة مجاهدة يقصد بها قهر منازعة الجاه والمنزلة، والصوم يقصد به قهر منازعة القوة البهيمية. فالمجاهدة تهدف إلى قهر المنازعات.

ولايغيبنَّ عن البال أن المنازعات على نوعين: العقل والطبيعة. فأعظم ما منع الحكماء والفلاسفة عن اتباع الحق والخضوع للأنبياء عليهم السلام هو العقل؛ فهم وإن عالجوا متطلبات الطبيعة كل المعالجة، وهذبوا أخلاقهم، ومارسوا أشد المجاهدات، فتلاشى فيهم المنازع الطبيعي إلا أن الذي منعهم من اتباع الأنبياء هو العقل. فقد اغتروا بعقلهم، واستصغروا علوم الأنبياء في جنب ما عندهم من العلم الموهم، وأعرضوا عن قبول هداية الرسل ومعارفهم، واستهزؤوا بهم، و سخروا منهم، وكأن قوله تعالى يشير إلى أمثال هؤلاء: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر:٨٣]. قال ابن زيد: واغتروا بعلمهم في الدنيا والمعايش، وظنوا أنه لا آخرة ففرحوا، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم:٧]. فالفرح هنا مكني عن ازدهائهم وغرورهم وتمسكهم بما هم عليه، وإطلاق العلم على اعتقادهم تهكم، وجري على حسب معتقدهم وإلا فهو جهل. ويطعن أدعياء العلم في القرآن

الكريم بأنه كتاب عادي لا وزن له؛ فإنه يتحدث عن أهون خلق الله تعالى من البعوض والذباب، وكلام الله تعالى أرفع من التعرض لأمثالهما. وقد غفلوا عن أن ذكر البعوض والذباب في القرآن لم يأتِ إلا تمثيلا. والتمثيل يتطلب أن يكون المثال على مستوى الممثل له، فشبه القرآن الكريم الأصنام بالذباب إشارةً إلى ضعفها وعجزها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣]. وشبه الله تعالى اتخاذ آلهة من دونه سبحانه ببيت العنكبوت في ضعفها، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١]. ولولا مراعاة المناسبة بين المشبه والمشبه به لعاد التشبيه لاغيا لاجدوى تحته.

والمانع الآخر عن قبول الحق هو الطبيعة، فإنها تدعو إلى التمتع بجميع الملذات و الشهوات، وإخضاع كل ما سواها لها، والتغلب عليه، ومن الناس من يذهب إلى أبعد من ذلك فيحاول تسخير الجن؛ بله الإنس لهوى في نفسه. فالمانع عن قبول الحق أمران: العقل والطبيعة. والعقل قاطع طريق على خاصة الناس، وأما الطبيعة فتقطع الطريق على الناس جميعًا. والمجاهدة تتطلب التغلب على الأمرين: العقل والطبيعة. فالأعمال على نوعين:

الأول: ما يغلب عليه العقلية، كالصلاة مثلا؛ فإن الغرض منها قهر الجاه، والتذلل إلى الله تعالى. والعقل يرى المناسبة بين التذلل والصلاة، فإن المرء يقوم في الصلاة مكتوف اليدين، ويضع أشرف الأجزاء - وهو الرأس- على أرذل العناصر، وهي الأرض. فما من جزء من أجزاء الصلاة إلا وينمّ عن غرضها وهدفها. وقس عليها الصوم؛ فإنه يهدف إلى كسر القوة البهيمية، والمناسبة بينهما معقولة. فالعقلية غالبة في هاتين العبادتين. والقيام بهما يتضمن مراعاة للعقل.

والنوع الثاني من الأعمال ما يكون العقلية فيه مغلوبة، ولايدركه العقل مباشرةً. وإنما يغلب فيه الطبيعة، والقيام به مراعاة للطبيعة. وحيث يتم تسخيرهما مع مراعاة متطلباتهما فإنهما تصبحان على علاقة مع الله تعالى، وتنقادان لله تعالى، وتتصفان بالاعتدال والوسطية[1].

يقول أهل العلم: مثل العقل كمثل قطع غيار المحرك في القطار، فلامانع من تحريك دولاب القطار بها، وإن كان يجلب ذلك مشقات عظيمة، ولاشك أنه يتوقف بعد ما يقطع مسافة قليلة، ويعجز عن قطع المسافات الطويلة. فبالإمكان استخدام الجسد بقوة العقل، ولكنه قليل جدًّا وبمشقةٍ عظيمةٍ. وأما إذا كان القطار يحمل معه النار والماء ثم يتم تحريك قطعها الحديدية فإنه لايصعب عليه قطع مسافة آلاف الأميال. فهذا مثال الطبيعة. فإذا انصاعت الطبيعة أمكن استخدامها في أعمال عظيمة.

والحج من أعظم الأسباب التي تعين على تسخير الطبيعة وإخضاعها، ويشير إليه إضافة الحج إلى البيت في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]. وذلك

(١) التهانوي في خطبه، ص ٢٥٥.

أن العقـل يتطلـب العنايـة بـنفس العبـادة والتركيـز عليها، بعيدًا عن القيود والهيئات، فإن العقل يتطلب التجـرد ويعـاف التشخـصات والتعينـات، وأمـا الطبيعـة فتـأنس بالمحـسوسات، فلاتـأبى القيـود و الهيئات والتعينات. ومن اتصف بالتجرد فَقَدَ الأنس والتألف. فالصلاة مثلا روحها الساري هو الخشوع والخضوع. والعقل يدرك مجرد هذا المعنى. والقيود على نـوعين: نـوع يتحقـق داخـل الـصلاة، كـالركوع والسجود، والعقل لايأباهما، فإنهما من وجوه وصور الخشوع والخضوع، كما لايأبى العقل قيد الطهارة. والنوع الثاني من القيود ما يتحقق خارج الصلاة، كالمخصوص من المكان والمخصوص من الزمان، فإن العقل لايجوِّز أمثال هذه القيودات. وإنما هي مـن حـظ الطبيعـة. فالـصلاة -كـما أسـلفنا- يغلـب عليها العقلية، ويستسلم فيها الطبيعة. فالعقل يجوِّز العبادة البعيدة عن قيود الزمان والمكان. مثلا ذكرُ الله تعالى ليس مقيدًا بزمان ولا مكان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]، وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا قالت: كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يذكر الله على كل الأحيان أي على كل الأزمان، في كل زمن يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا.

وجاء فرض القيود على بعض العبادات مراعاةً للطبيعة؛ فإنها ألصق بالمحسوسات، وتتطلب القيود بأنواعها. فالعبادة التي تهدف إلى تسخير العقل يجب أن تخلو من القيود، والتي تهدف إلى تسخير الطبيعة يجب توفر القيود فيها. فالعبادات كلها لله تعالى.

ولايغيبن عن البال أن القيود على ثلاثة أنواع: الأول: قيد الزمان، والثاني: قيد المكان، والثالث: قيد مناسب عداهما. فإذا تأملنا في هذه الأنواع الثلاثة من القيود تبين أن قيد الزمان لايستبعده العقل كثيرًا، استبعاده لقيد المكان. فإن الزمان- رغم أنه قيد من القيود- أكثر مناسبةً وتألفًا مع الإطلاق؛ فإنه بدوره يحمل نوعًا من الإطلاق. فالزمان قيد أكثر شبها بالإطلاق. فلايأباه العقل كثيرًا. وأما قيد الزمان والقيد الشبيه به حسًّا، فإن العقل يأباه كل الإباء. وهو ألصق وأوفق للطبيعة. وحيث إن الله تعالى أضاف الحج إلى البيت في محكم تنزيله، والبيت عبارة عن مكان خاص، فكانت هذه العبادة تهدف إلى تسخير الطبيعة، ولايجوزه العقل على الإطلاق[٢].

وإذا تأملنا في الحج تبين لنا أن أفعاله ومناسكه كلها على هذا النوع، فلننظر أن أول ما يبدأ به المرء في الحج هو أنه يغادر أعزته وأقاربه وبيته المريح ومتاعه وأثاثه ورياشه حين يستعد لرحلة الحج. وهنا يتعرض العقل له، ويقول: ما الداعي إلى مثل ذلك؟.

فإذا بلغ المواقيت نزع ما كان عليه من الثياب الغالية العزيزة عليه، ولبس ثياب الإحرام وهو رداء يرتديه، ورداء آخر يغطي به جسده دون رأسه. فكأنه لبس ثياب الأموات، فيلومه العقل، وينكر عليه.

يقول الشاه ولي الله الدهلوي في حجة الله البالغة (٢/٩١): «الإحرام في الحج والعمرة بمنزلة التكبير في الـصلاة، فيـه تـصوير الإخـلاص والتعظـيم وضـبط عزيمة الحج بفعلٍ ظاهرٍ، وفيه جعل النفس متذللةً

[٢] التهانوي في خطبه،ص ٢٦٠.

خاشعةً لله بترك الملاذ والعادات المألوفة وأنواع التجمل، وفيه تحقيق معاناة التعب والتشعث والتغبر لله، وإنما شرع أن يجتنب المحرم هذه الأشياء تحقيقًا للتذلل وترك الزينة والتشعث، وتنويهًا لاستشعار خوف الله وتعظيمه، ومؤاخذة نفسه ألا تسترسل في هواها، وإنما الصيد تلةٌ وتَوسعٌ، ولذلك قال النبي ﷺ «من اتبع الصيد لها»[٣] ولم يثبت فعله عن النبي ﷺ ولا كبار أصحابه وإن سوغه في الجملة. والجماع انهماك في الشهوة البهيمية، وإذا لم يجز سد هذا الباب بالكلية؛ لأنه يخالف قانون الشرع، فلا أقل من أن ينهى في بعض الأحوال كالإحرام والاعتكاف والصوم وبعض المواضع كالمساجد. سئل النبي ﷺ ما يلبس المحرم من الثياب؟ «فقال: لا تلبسوا القمص ولا العمائم ولا السراويلات ولا البرانس ولا الخفاف»[٤]. وقال للأعرابي: «أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات وأما الجبة فانزعها»[٥]. والفرق بين المخيط وما في معناه وبين غير ذلك، أن الأول ارتفاق وتجمل وزينة، والثاني ستر عورة، و ترك الأول تواضع لله، وترك الثاني سوء أدب».اهـ

ثم يصلي ركعتين، ويلبي: اللّٰهم لبيك....، ويرفع صوته بالتلبية، فيقول العقل: مالك تصرخ، وترفع الصوت؟ وهو ماضٍ في تلبيته دون أن يستجيب لنداء العقل. فإذا وقع نظره على الكعبة المشرفة أجهش بالبكاء، وسقطت الدموع على وجنتيه، فيقول العقل: ما لك تبكي وتذرف الدموع؟

ويعود من المزدلفة إلى منى ليرمي فيها الجمرات يومين أو ثلاثة أيام، والعقل يأبى ذلك، ويقول: مالك؟ هل بك جنون، ترمي هذه الجمرات التي لاحس لها ولا حياة. وإنما يأتي به العبد إظهارًا لعبوديته ورقه، يقول الغزالي في «إحيائه»(١/٢١٥): «وذلك كرمي الجمرات مثلاً إذ لا حظَّ للجمرة في وصول الحصى إليها فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه و عبوديته بفعل ما لايعقل له معنى؛ لأن ما يعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه، ويدعوه إليه، فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية؛ إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط، لا لمعنى آخر، وأكثر أعمال الحج كذلك. ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إحرامه: «لبيك بحجة حقًا تعبدًا و رقًّا»[٦]، تنبيهًا على أن ذلك إظهار للعبودية بالانقياد لمجرد الأمر وامتثاله كما أمر من غير استئناس العقل منه بما يميل إليه ويحث عليه».

ثم انظر في مناسك الحج الأخرى من الطواف والسعي بين الصفا والمروة، والخروج إلى منى ثم إلى عرفات، ثم العودة إلى المزدلفة كل أولئك روعي فيه متطلبات الطبيعة، ويأباه العقل. فالحج من أهم ما يكبح جماح النفس، ويحد من غلوائها، ومن أعظم وسائل تزكيتها، وتطهير القلب من الأرجاس والأنجاس.

**محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**

(تحريرًا في الساعة السابعة صباحًا من يوم الجمعة ٢٢/شوال ١٤٤٤هـ = ١٣/مايو ٢٠٢٣م)

---

[٣] رواه أبوداود في السنن [٢٨٥٩] بلفظ: من اتبع الصيد غفل.

[٤] رواه البخاري [٥٨٠٣].

[٥] رواه البخاري [٤٣٢٩].

[٦] أخرجه الْبَزَّار وَالدَّارَقُطْنِيّ فِي الْعِلَل من حَدِيث أنس.

# من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)

تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

الغلو في العقيدة هو أنهم اتخذوا بشرًا مولودًا إلهًا. والغلو في العمل هو ما يسمى بالرهبانية (وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ) [الحديد:٢٧]. وما ذُكِرَ من قبائح اليهود يتجلى منه أنهم كانوا لايقيمون للدين والديانة وزنا؛ لأنهم كانوا غارقين في حب الدنيا حتى صار النيل من الأنبياء عليهم السلام وازدراؤهم وقتلهم شعارًا وديدنًا لهم. وأما النصارى فقد غلوا في تعظيم الأنبياء غلوًّا جعلهم يعتبرون بعضهم إلهًا أو ابن الله، وتخلوا عن الدنيا واختاروا الرهبانية.

**فائدة:** أي أن هذه العقيدة الشركية ليس لها وجود في أصل الإنجيل وغيره من الكتب السماوية، وإنما اخترعها بولس فيما بعدُ اقتفاءً لآثار اليونانيين من عبدة الأصنام. وساروا عليه جميعًا. ولايليق بعاقل أن يرجو التخلص من مثل هذا التقليد الأعمى.

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾

ورغم أن الكتب السماوية كلها لعنت الكفرة، إلا أن كفرة بني إسرائيل -لما غلوا في العصيان والتمرد بحيث لم يكن يرعوي الجاني عن جرائمه، ولا كان غير الجاني ينهى الجاني عنها؛ بل صاروا على قلب رجلٍ واحدٍ، و يؤاكل بعضهم بعضًا ويشارب بعضهم بعضا بكل بساطة، ولاكانوا يعبسون للضالعين في الفواحش و المنكرات، ولايقطبون في وجوههم، لعنهم الله تعالى على لسان داود وعيسى ابن مريم. كما أنهم تجاوزوا في التجرؤ على المعاصي، وكذلك جاءت هذه اللعنة على ألسنة الأنبياء مهلكةً لهم بصورة غير عادية. ولعل مسخ كثير منهم إلى القرد والخنازير ظاهرًا وباطنًا مرده إلى هذه اللعنة. وتوسع نطاقُ مسخهم باطنًا حتى تجد كثيرًا منهم

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

يُعرضون عن المسلمين - الذين يؤمنون بجميع الكتب السماوية، ويصدقون جميع الأنبياء عليهم السلام ويعظمونهم- ويتولون من دون المؤمنين مشركي مكة الذين هم عبدة الأصنام ومنكرو النبوة وغيرها وجهلة على الإطلاق. ولو أن أهل الكتاب هؤلاء آمنوا حقًّا بالله تعالى، وبالنبي وبالوحي الإلهي، لم يَسَعْهم أن يوالوا عبدة الأصنام من دون القوم الذين يؤمنون بهذا كله؟ وقلة الشعور، وسوء المذاق، والفرار من عباد الله تعالى إلى موالاة عبدة الأصنام، ليس كل ذلك إلا من تداعيات هذه اللعنة التي أبعدتهم من رحمة الله تعالى الواسعة كل البعد.

ساقت الآيات الماضية كفرهم وجريمتهم السابقة، والتحذيرَ من الغلو في الدين وتقليدهم الأعمى، ليتوب هؤلاء الملعونون من فعلاتهم، ويحاولوا السير على طريق الصدق والصواب. وهذا الشطر من السورة ينبه على حالهم الحاضرة، في إشارة إلى أن اللعنة التي وقعت عليهم على لسان داود والمسيح عليهما السلام لازالت آثارها باقية قائمة. فالاشمئزاز من أهل الله والعارفين وعداؤهم، وحب المشركين الجهلة كل ذلك دليل بين على أن قلوبهم قد مُسخت كل المسخ من جراء اللعنة الإلهية عليها. فإن لم يتداركوا حالهم، ولم يرجعوا إلى الحق؛ فإنهم يتعرضون للعنة شديدة يلعنها الله تعالى على لسان سيد الأنبياء وخاتم الرسل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾

وقوله: (لَا يَتَنَاهَوْنَ) يحتمل معنيين:

(١) لايمتنعون، كما في روح المعاني.

(٢) لاينهى بعضهم عن بعض، كما هو المشهور، فإن المنكر إذا شاع في قوم، ولم ينه بعضهم بعضا، لم يؤمنْ نزول العذاب العام.

تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾

المراد بـ(الَّذِيْنَ كَفَرُوْا) المشركون. وماصدق هذه الآيات يهود المدينة، الذين استعدوا لقتال المسلمين بالمهالأة مع كفار مكة.

**فائدة:** أي ما يقدمونه من الأعمال للآخرة قبل موتهم، مما يجعلهم يستحقون غضب الله تعالى وعذابه الأبدي.

وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

حمل بعض المفسرين (النَّبِيِّ) على موسى عليه السلام، وحمله بعضهم على محمد ﷺ. والمعنى: لوكان هؤلاء اليهود حقًّا يوقنون بصدق موسى عليه السلام وتوجيهاته لم يكن لهم أن يتخذوا من دون نبي

آخر الزمان-الذي بشر به موسى عليه السلام- هؤلاء المشركين، أو المعنى: لو آمنوا مخلصين بالنبي محمد ﷺ لم يصدر منهم هذه الفعلات من المؤامرة مع المشركين. وعلى هذا التقدير الثاني تنظر الآية الكريمة إلى المنافقين من اليهود.

**فائدة:** قد بلغ بهم معصية الله تعالى ومعصية الرسول الذي اعترفوا به- أن عادوا يؤثرون المشركين على أهل التوحيد. ويا للأسف، قد بلغ بكثير منا – نحن أدعياء الإسلام-الأمرُ أننا نتخذ الكفار أولياء، ونقوم بجانبهم وندافع عنهم من دون المؤمنين. اللّٰهم احْفَظْنَا مِنْ شُرُوْرِ اَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ اَعْمَالِنَا.

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

أفادت هذه الآيات أن موالاة اليهود للمشركين لاترجع إلا إلى عداء المسلمين وبغضهم. والأمم التي واجههم الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان المشركون واليهود أشدها – على الترتيب- عداء للمسلمين. وأذى مشركي مكة أظهر من الشمس في رائعة النهار. وأما اليهود الملعونون فلم يقصروا في ممارسة أفظع وأشنع الفعلات. فقد حاولوا قتل الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإلقاء صخرة عليه على غرة، وسعوا في تسميم طعامه، وسحروه، فواصلوا استحقاق غضب الله على غضب، واللعنة تلو الأخرى. وبإزاء ذلك كان النصارى رغم كفرهم وحسدهم للإسلام، ولايقر لهم عين على مايرون من رقي المسلمين وازدهارهم، إلا أن استعداد قبول الحق كان أكثر فيهم من غيرهم من الأحزاب. وكانت قلوبهم أسرع ميلًا إلى الإسلام وحب المسلمين من غيرهم. ويرجع ذلك إلى أن النصارى كان يسودهم علم الدين حينئذ أكثر من غيرهم من الأمم، وكان كثير منهم من زهد في الدنيا وترهب على الطريقة السائدة فيهم. ورقة القلب والتواضع من خاصة صفاتهم، والأمة التي تكثر فيها هذه الخصال تؤدي بها حتمًا إلى أن تحمل مادة قبول الحق وسلوك الطريق السوي أكثر من غيرها من الأمم؛ لأن قبول الحق لايحول دونه في العادة إلا ثلاث خصال: الجهل، وحب الدنيا أو الحسد ونحوه. و يقلل وجودُ

القسسين في النصارى من الجهل، وكثرةُ الرهبان تقلل من حب الدنيا، ورقةُ القلب والتواضع مما يقلل من الكبر والنخوة ونحوهما. فموقف قيصر الروم، ومقوقس مصر، ونجاشي الحبشة من كتاب محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يشهد بأن النصارى كانوا يحملون كفاءة قبول الحق ومودة المسلمين أكثر من غيرهم من الأمم. وحين ضاقت جماعة من الصحابة ذرعًا من اضطهاد المشركين وظلمهم وهاجرت إلى الحبشة، ولم يمل المشركون البلوغَ بدعاياتهم حتى إلى بلاط ملك الحبشة، وطلب الملك المسلمين ذات يوم، ووجه إليهم بعض الأسئلة، وسألهم عن عقيدتهم في عيسى عليه السلام أيضًا، فتلا عليهم جعفر رضي الله عنه سورة مريم، وكشف عن عقيدة الإسلام بكل وضوح، فتفاعل الملك كثيرا معهم، وأقر بأن ما ذكره القرآن الكريم من العقيدة في عيسى هو الصحيح الصواب من غير شطط ولا وكس. واعترف بأن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو نبي آخر الزمان كما بشرته به الكتب السابقة. وله قصة طويلة. وبالتالي وجَّه وفدًا قوامه سبعون من أحداث الإسلام من النصارى بعد الهجرة إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. فلما بلغوا المدينة وتمتعوا بسماع القرآن الكريم أجهشوا بالبكاء، وفاضت عيونهم بالدمع، وانطلقت ألسنتهم بـ (رَبَّنَا آمنَّا) الآية.

وهذه الآيات تتحدث عن هذه الجماعة، وليس فيه إخبار أن موقف النصارى واليهود والمشركين من الإسلام والمسلمين سيستمر على مثله إلى يوم القيامة. فالذين يسمون أنفسهم نصارى اليوم كم منهم قسيسون ورهبان، ومتواضعون، يسمعون آيات الله تعالى فتذرف عيونهم الدموع؟ فإذا كان (أقربهم مودة) معلولا بـ(ذٰلِكَ بِاَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيْسِيْنَ وَرُهْبَانًا وَّاَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ) [المائدة:٨٢]، وهذه العلة متلاشية فأنى يتحقق المعلول وهو قرب المودة؟ وعلى كلٍ ما وصِفَ به النصارى واليهود والمشركون المعاصرون للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الصفات، نحكم عليهم بمودة الإسلام والمسلمين أو عداوتهم نظرا إلى الوقت والمكان والقدر التي تتحقق هذه الصفات فيها.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

أول السورة أكدت على إيفاء العهود ثم بينت الحلال والحرام، وتخلل ذلك مَعَانٍ أخرى مفيدة حسب المناسبات الخاصة التي أشرنا إليها، والحديث جرّ إلى الحديث، وأكمل المعاني الاستطرادية كلها ثم عاد إلى أصل الموضوع ابتداء من الركوع الأول من هذا الجزء. وما أروع أن مضمون هذا الركوع؛ فإنه على الارتباط الكامل بما

سبق في الركوع المتصل بهذا الركوع، فإن ما جاء ذكره من فضائح اليهود والنصارى في الركوع السابق يتلخص لمن يدركها إلى أمرين: انهماك اليهود في ملذات الدنيا وشهواتها، وأكل الحرام مما تسبب في تقصيرهم في الدين. وغلو النصارى وتفريطهم في الدين مما أدى بهم إلى الرهبانية وغيرها. ولاشك أن الرهبانية التي تستحق أن نطلق عليها «كوليرا التدين أو الروحانية» كانت محمودة بالنظر إلى النية وأصل الداعي إليها في الجملة، ولذلك ساق قوله: (ذٰلِكَ بِاَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيْسِيْنَ وَرُهْبَانًا وَّاَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ) [المائدة:٨٢] في معرض الثناء والمدح من وجه من الوجوه؛ ولكن لما كان مثل هذا التجرد والزهد في الدنيا مما يحول دون الهدف الأعظم والقانون الإلهي، الذي راعاه خالق الكون في خلق العالم فالدين العالمي الذي جاء كفيلًا أبديًّا لفلاح الدارين وإصلاح المعاش والمعاد لجميع بني البشرية كان لابد أن ينتقد بشدة هذه الوجوه المبتدعَة من العبادة. ولايسع كتابًا من الكتب السماوية أن يأتي بتوجيه جامع شامل معتدل يخص جميع نواحي الرقي الإنساني، ما قدمه هاتان الآيتان. فقد حذر الله تعالى المسلمين في هذه الآيات تحذيرًا واضحًا من أن يحرموا على أنفسهم عقيدةً أو عملًا ما لذَّ وحلَّ وطاب؛ بل رغَّبهم في التمتع بما خلق الله تعالى من النعم المباحة الطيبة إلا أنه قيده بشرطين إيجابي وسلبي: الأول: عدم الاعتداء أي عدم تجاوز الحد. و الثاني: اتقاء الله تعالى. والاعتداء يحتمل وجهين: أن يعاملوا الحلال معاملة الحرام، ويقعوا في الرهبانية شأن النصارى، أو يعتدوا في التمتع باللذائذ والطيبات فينهمكوا في اللذات والشهوات حتى يجعلوا الدنيا أكبر همهم شأن اليهود. والحاصل: يجب أن يسلكوا طريقا وسطًا بين الغلو والجفاء، وبين الإفراط والتفريط. فلايسمح بالإكباب على لذائذ الدنيا، ولاالتخلي عن المباحات والطيبات انطلاقًا من الرهبانية. وإنما قيدنا بـ(انطلاقًا من الرهبانية) لأنه لايمنع الحذر من بعض المباحات في بعض الأوقات لعلاج بدني أو نفسي بصورة موقتة. كما أن المسلمين مأمورون بالتقوى أي اجتناب الممنوعات خوفًا من الله تعالى. وتشهد التجارب أن استعمال بعض المباحات يؤدي أحيانًا إلى ارتكاب الحرام أو الممنوع. فلو ترك البعض هذه المباحات- لا على سبيل العهد واليمين أو التقرب إلى الله- بل على سبيل الحذر والحيطة مع اعتقاد إباحته لم يدخل ذلك في الرهبانية؛ بل هو ورع وتقوى. وفي الحديث: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتّى يَدَعَ مَالَا بَاسَ به حذرا مما به بأس». (رواه الترمذي). والحاصل أنه يجوز للمرء أن يستفيد من جميع أنواع الطيبات مع مراعاة ترك الاعتداء واختيار تقوى الله تعالى. والرقي في جميع نواحي الحياة مفتوح أبوابه.

# الإسلام والأدب

بقلم: الأستاذ/ عزت العزيزي

**الكلمة وخطورتها**

بالكلمة كان الوجود، وبالكلمة قامت السمٰوات والأرض، وبالكلمة تغير التاريخ مرات ومرات، لم يتحول التاريخ تحولاته الخطيرة الهائلة بتغير وسائل الإنتاج، ولا سواها، كما يزعم أفاقو الديالكتيكية، فالحضارة المسيحية لم تقمها طبقة، فما قام السيد المسيح للدفاع عن البروليتاريا، ولا عن البرجوازية، وثورة الإسلام الرائعة العجيبة ما قامت بها طبقة ضد طبقة، وما حركتها آلة، ولا أثر فيها إقطاع، ولا أشعلها برجوازي أو رقيق.

إنما هي الكلمة القاهرة التي لم تنبعث حتى من الأرض بما فيها من طبقات وتصارع على الطعام والشراب، وإنما هبطت من السماء على قلب الإنسان ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾.

أسرت هذه الكلمة الإنسان الرسول، فلم يملك إلا أن يصدع بها، أيقظته من النوم فلا هجوع ولا رقود ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾.

وأنى للإنسان أن يقاوم سحر الكلمة؟ لقد كانت سلاح محمد الرسول عليه صلوات الله وسلامه، بها قاوم الكفر والإلحاد، فأيقظت قلوبا، وفتحت أبصارا وآذانا ما أراد أصحابها أن يوقظوها أو يفتحوها.

هاجم النظم الفاسدة الظالمة في ميادين الاقتصاد والسياسة والاجتماع والأخلاق ودمرها بالكلمة أولا، ثم أقام مكانها نظام الإسلام الرائع العادل، فانتصرت الكلمة قبل أن ينتصر السيف والساعد القوي، انتصرت رغم ضعف الساعد وفقد السلاح، حتى ظن الواهمون أنه السحر؛ لأنهم فعلا قد سحروا بروعة الكلمة، فألقوا سلاحهم رغم إرادتهم، وأنى لهم مقاومة الكلمة، وهي تسير الجبال لو ألقيت عليها ووعتها؟ ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾.

نعم إن جبال المقاومة للحق أعتى وأقوى من أعظم جبال العالم، ولقد صدعها القرآن الكريم، وما القرآن إلا الكلمة الواعية الهادفة الساحرة بالحق.

هذا القرآن هو الذي وضع حدًّا للأدب الفارغ اللا هادف، كما وضع حدا للحياة الفارغة اللاهادفة.

**الأدب الإسلامي**

بـالقرآن بـدأ الأدب الإسـلامي، ومـن القـرآن اسـتمد الأدب الإسـلامي وجـوده، ومـن القـرآن استقى معينه، إذن: ما هو الأدب الإسلامي؟.

أرى أننـا نخطـئ خطـا كبـيرا إذا اعتقـدنا أن الأدب الإسلامي يعني قطاعا زمنيا معينا، فنسمي كل ما أنشئ من الأدب في هذه الفترة أو تلك أدبا إسـلاميًّا، إن الإسـلام بطبيعتـه لا يعـترف بقيـود الزمان، كما لا يعترف بقيود المكان، بل يتحرر من قيودها جميعا، ويحرر كل ما يتصل به من كل قيد يحد من امتداد الفكر إلى أرحب ما يمكن من الآفاق. فلا يكـون الشيء إسلاميا لأنه عاصر الإسلام، كما لا يكـون غير إسلامي إذا لم يعاصره «فإبراهيم الذي كان قبل الإسلام بقرون عديدة مسلم، لأنه التقى مع الإسلام على صعيد العقيدة والفكر، رغم أنه لم يلتق بالإسلام زمنيا».

وعـلى هـذا فـلا يمكننـا أن نعتـبر أدبـا مـا أدبـا إسـلاميا، إلا إذا انطبـق عليـه مفهـوم الأدب الإسلامي. فما هو إذن مفهوم هذا الأدب؟.

**الأدب قبل الإسلام**

عنـدما جـاء الإسـلام كـان عنـد العـرب أدب، وكـان لهـم شـعر ونثر وكـان أدبهـم ينبثـق عـن طبيعـة الحياة العربية قبل الإسلام، والتي سماها الإسلام حياة الجاهلية فكان ذلك الأدب أدبا جاهليًّا.

كانـت تـسيطر عـلى تلـك الحيـاة روح النظـام القبلي من جهة، والفردية الذاتية من جهة ثانية.

فالقبيلـة هـي التـي تمـنح الحمايـة للأفـراد، وعـلى أساسـها تقـوم العلاقـات الاجتماعيـة بينهم، فعلاقـة الإنـسان بالإنـسان يحـددها المفهـوم القـبلي والنظـام القبلي، فمن هذه الزاوية على الأديب أن يسخر أدبه لخدمـة القبيلـة التـي ينتمـي إليهـا، دون أي اعتبـار إنساني أو أخلاقي غالبا.

فما أنا إلا من غزية إن غوت

غويت وإن ترشد غزية أرشد

فـإذا تجاوزنـا مـا تمليـه ظـروف ارتبـاط الفـرد بالقبيلـة مـن الـولاء لهـا، والـدفاع عنهـا، ومخاصـمة أعدائها، تلك الخصومة التي لا تقوم على أي أساس مـن الإنـسانية أو الحـق أو العـدل، إذا تجاوزنـا ذلـك فالفرد حر بنفسه والأديب حر بأدبه، فله أن يبيعه أو يؤجره، وهـذا مـا كـان يفعله شعراء المدح والهجاء، يقبضون الثمن، فيرفعون الممدوح على قدر ما دفع، لا على قدر ما يستحق، ويقبضون الثمن فيهجون له مـن يريـد عـلى قـدر مـا دفـع كـذلك مـن ثمـن لـشتم أعراض الناس وتجريحهم.

أمـا حـين لا يـؤجر الأديـب أدبـه مادحـا أو هاجيا، فلا يجد إلا أن ينطلق مع ذاته، يتتبع شهواته وغرائزه ومتعه التي تنطلق غالبا دون أن تتقيد بقيمة مـن القـيم، فالحيـاة عنـد معظـم شـباب العـرب في جاهليتهم كما قال طرفة (خمر ونساء وحرب).

ولا يعنـي هـذا أن لا يـبرز بـين الفنيـة والفنيـة أديب شاعر، أو خطيب يثور على الأوضاع القبلية الظالمة، أو الفردية المنحرفة الفارغة، كزهير بن أبي

سلمى، ولبيد، وقس بن ساعدة، وغيرهم ولكنها صيحات فردية كانت تضيع في الموج الهادر.

**أدب العقيدة**

وعندما حدد الإسلام مفهوم الأدب رفض ذلك كله، رفض الأدب القبلي، لأنه رفض القبيلة والنظام القبلي ودعا إلى تكوين مجتمع يقوم على غير الأسس القبلية أو العنصرية أو الإقليمية. مجتمع واسع قادر على إذابة الألوان والأجناس والحدود الجغرافية، لأن علاقة الناس فيه أوسع من ذلك كله، تلك علاقة العقيدة والفكرة، يستوي فيها البشر مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم وبلادهم.

ولم يكن ذلك في الإسلام مجرد نظرية؛ بل كان واقعا حقيقيًّا قائما، حققه الرسول عليه الصلاة والسلام في الجماعة الصغيرة المؤمنة في مكة، ثم في المجتمع الصغير في المدينة، ثم في المجتمع الكبير في جزيرة العرب، ثم أتم العمل أصحابه، فحققوه في المجتمع الأكبر الفريد في أوسع دولة في العالم القديم، ضمت أجناسا وألوانا ولغات وأقاليم، شتى، كانت قبل الإسلام تشكل دولا وشعوبا مختلفة فيما بينها أشد الاختلاف.

وبناء على ذلك أقام الإسلام أدب العقيدة والفكرة مقام أدب القبيلة، وبذلك منع الأدب القبلي بجميع أشكاله وألوانه (من دعا إلى عصبية فقد دعا بدعوى الجاهلية)، (ليس منا من دعا إلى عصبية)، (دعوها فإنها منتنة)، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]، (لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى)، (الناس سواسية كأسنان المشط).

وهكذا حول الأدب من الارتباط بالعقيدة والفكرة دون أي اعتبار لغيرها، فوقف حسان بن ثابت الخزرجي يدافع عن محمد بن عبد الله القرشي، ويهاجم قريشا قبيلة محمد ﷺ نفسه، أو يهاجم بعض الخزرج أنفسهم، إن كان فيها منافق يعادي محمدا والإسلام، وسخر أدبه واستعد أن يضحي بأسرته وقبيلته في سبيل محمد، باعتباره ممثلا للعقيدة والفكرة.

فإن أبي ووالده وعرضي

لعرض محمد منكم وقاء

وكذلك وقف عبد الله بن رواحة القرشي يهاجم بشعره قبيلته قريش، لأنها ناصبت العقيدة التي آمن بها العداء.

**القرآن والأدب**

وقد ركز القرآن الكريم على رسالة الأدب في خدمة العقيدة والمبدإ مهاجما في نفس الوقت ما كان يعانيه أدباء الجاهلية من ضياع وقلق، وما اتجهوا إليه من انحراف في القيم.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ

وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٢].

فليس انتصار الأديب إذن لمصلحته الذاتية وأهوائه، ولا انتصاره لقبيلته وأسرته، وإنما انتصاره للحق وللقيم التي ينبغي أن يسخر لها قلمه، فهو جندي من جنود العقيدة، عليه واجب العمل من أجلها بما وهبه الله من ملكة في إبداع القول الجميل المؤثر، ولم يستهن رسول الله ﷺ في يوم من الأيام بقوة هذا السلاح وفعاليته؛ بل كان مقدرا له أعظم التقدير، مكافئا في نفس أصحابه أحسن مكافاة.

ويفسح لحسان أقرب مكان إليه في مسجده، ويقبل عليه بوجهه يسمع إنشاده، ويثني عليه، ثم لا يكتفي بذلك بل يمضي في تشجيعه في هجاء أعداء الدعوة الإسلامية (اهجهم والروح القدس يؤيدك).

**خطة الإسلام في تحويل الأدب**

وبذلك يكون الإسلام قد حول أيضا أدب المدح القائم على التكسب، وإزجاء المديح لمن يدفع الثمن، ولو كان لا يستحق حتى الهجاء، يكون قدحوله إلى طريقه الطبيعي الصحيح، فليمدح الأديب خطيبا أو منشدا، ولكن لا يمدح للمال والعطاء، وإنما هو إنسان عقائدي لا يقول إلا ما يعتقد أنه الحق، فلا يمدح إلا من هو أهل للمدح، ومقياس الأهلية بلاء الممدوح في سبيل العقيدة والفكرة التي آمن بها الأديب، فهو إذ يمدح شخصا معينا، لا يمدحه لأنه فلان ابن فلان، أو لأنه من هذه القبيلة أو تلك الأسرة، أو لأنه يثاب ممن يمدحه بالذهب والفضة وكريم العطاء، وإنما يمدحه لأنه يعمل بإخلاص ويضحي في سبيل العقيدة والفكرة.

وهكذا كان مدح شعراء المسلمين عندما لم يكن انحراف في مفاهيم الحياة المختلفة.

أما أولئك المداحون الذين اتخذوا الأدب حرفة، وجعلوا من الكلمة بضاعة تباع وتشترى، فقد احتقرهم الإسلام، ودعا إلى احتقارهم، فهم ممن يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله، ولا يستحقون إلا النبذ والطرد، ولا جزاء لهم إلا تعفير وجوههم التي أراقوا ماءها بسؤال الناس بمدح كاذب باطل، وفي هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «احثوا في وجوه المداحين التراب».

أما أدب الضياع والقلق الذي كان متمثلا في الأدب الذاتي، فقد استطاع الإسلام أن يقضي على أسبابه ولم يلجأ إلى منعه بقرار ومرسوم، وإنما جعل للحياة معنى أعمق، وهدفا أسمى، فلم يعد للفراغ والضياع والقلق مكان في حياة الفرد المسلم، فقد نمى الإسلام المسؤولية وعمقها في نفس كل فرد، ومهما يكن وضعه في المجتمع فإن عليه تبعات ومسؤوليات تجاه عقيدته ومجتمعه، إلى حماية هذا المجتمع، إلى مسؤوليته في نشر الإسلام وتبليغ الدعوة لكل أهل الأرض، وبمختلف الوسائل، ومنها الجهاد في سبيل الله، إلى مراقبة الحاكم حتى لا ينحرف عن نظام الإسلام، ونصحه ونصح كل مسلم.

كل هذه الواجبات يطالب بها الفرد المسلم مطالبة فردية خاصة إلى جانب المطالبة الجماعية العامة، فإن فلسفة الإسلام أن يعمق المسؤولية الفردية حتى لا تضيع المسؤولية وتتميع. ففرد عليه مثل هذه المسؤوليات وفي مثل هذا المجتمع لا يمكن أن يجد متسعا في نفسه أو في وقته للتافه الرخيص من الأدب، فلم تعد الحياة عنده خمر ونساء وحرب بلا غاية ولا هدف إلا السمعة وثناء الناس.

فلم يعد مكان في الأدب الإسلامي لمثل خمريات الأعشى، ومجون امرئ القيس، وفخر عمرو بن كلثوم، ولا ضياع طرفة وقلقه، أو نفاق النابغة، فالمسؤولية تقتضي أن لا تهدر الكلمة وأن لا توضع إلا حيث تؤدي دورها في البناء.

**الإسلام والأدب الشخصي**

ولا يعني هذا أن الإسلام رفض الكلمة الجميلة المعبرة عن كل عاطفة، والمصورة لأي جمال مالم تكن من الأدب الملتزم الكامل الالتزام، لا فالإسلام أعرف بالنفس الإنسانية وأدرى، وبأنه لا بد من الترويح عن النفس، ومنحها قسطا من الحرية في التعبير عن النزعات الفردية الخاصة، بعيدا عن جو العمل الجمعي والمسؤولية العامة: الجادة، ولكن في حدود من الذوق الرفيع والخلق الكريم من غير أثارة رخيصة أو انحراف وشذوذ، أو مجاهرة بكفر ومعصية، أو ترويج لفسق في الفكر، أو تحلل في الخلق.

وتطبيقا لهذه المبادئ، أثنى الرسول عليه الصلاة والسلام على بعض شعراء الجاهلية كعنترة ولبيد وزهير بن أبي سلمى، لما تضمنه شعرهم من قيم رغم ما فيه من غزل وحديث ذاتي عن النفس لا يخرج عن حدود الذوق والخلق.

قال عليه السلام:

(أصدق كلمة قالها لبيد (ألا كل شيء ما خلا الله باطل) كما تمنى أن يكون قد رأى عنترة.

وبالمقابل ذم امرأ القيس لما في شعره من مجون وانحلال خلقي، فقال عنه إنه حامل لواء الشعراء إلى النار. أي قائد أمثاله من المجانين المتحللين إذ راد لهم ذلك الطريق المنحرف.

وكذلك سمع الرسول عليه السلام كثيرا من القصائد في الغزل الرقيق، بلا مجون أو استهتار، كقصيدة كعب بن زهير وأثنى عليها؛ بل كان يطلب مثل هذا الشعر ويسمعه فيطرب لإنشاده، جاءت عائشة رضي الله عنها النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، تستأذن بأن تذهب مع نساء من المهاجرات في زواج مهاجر من أنصارية، فقال: هل أخذتم من يغني، فقالت: لا، فقال لها: إن الأنصار قوم يحبون الطرب فهلا أخذتم من يغني.

أتيناكم أتيناكم

فحيونا نحييكم

ولولا الحبة السمراء

ما جئنا لواديكم

فهو لا ينكر على الأنصار حب الطرب؛ بل

ويأمر بالشعر الرقيق أن يتغنى به، ولكن في مثل مناسبات الأفراح حتى لا يكون ذلك عادة تستهلك الوقت وتشغل عن الواجب.

**خروج عن الأدب الإسلامي**

مما مر نستطيع أن نعلم أن كثيرا من الأدب، وخاصة الشعر الذي أنشئ بعد عصر الرسول والخلفاء الراشدين، من عصر الأمويين وما بعدهم لا ينطبق عليه مفهوم الأدب الإسلامي، رغم أنه وجد في العصور الإسلامية، وذلك كمدح المنافقين الكاذب للحكام الظلمة، ومهاجاة الشعراء بعضهم بعضا بدافع العصبية القبلية، وما نهشوا من أعراض وحرمات، وما خاضوا فيه من مجون وتحلل، وما روجوا من شك وإلحاد، كل ذلك خروج عن مفهوم الأدب كما يريده الإسلام مهما يكن عصره، وأيا كان قائله.

**ميادين جديدة للفكر والأدب**

وإذ ضيق الإسلام على الشعراء خاصة والأدباء عامة ميادين القول لا تعنتا، ولكن لمجافاتها للإسلام وبعدها عنه، فقد فتح لهم أبوابا وميادين جديدة التصاقا بالفكر، وأكثر اتصالا بالحياة، وذلك حين وجه الفكر الإسلامي وجهة عملية واقعية، كبحث مسائل الحياة المختلفة في ميادين السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية، كما وجه الفكر للنظر والتأمل في الحياة ذاتها، والكون والإنسان، ودعا إلى تحرير الفكر تحريرا كاملا من كل شوائب التقليد، التي تحد من انطلاقه في آفاقه الرحيبة الواسعة.

هذه الميادين الجديدة هي التي أغنت الفكر الإسلامي والمكتبة العربية، وهي التي نستطيع أن نعتبرها بحق مظهرا للفكر الإسلامي الصحيح، بما أنشئ في إطارها من أبحاث في الأخلاق والاجتماع والنظر الفلسفي الحر.

كما أن ما قام حول القرآن من دراسات واسعة وعميقة، شملت كافة فروع الدراسات اللغوية وغيرها من تفسير وبلاغة.

وقد يقول قائل: وما بالك تقحم هذه الأبحاث والموضوعات، التي تكاد أن تكون علما بحتا في ميدان الأدب وهو فن لا علم، ولكنا نقول: إن تلك التعريفات المدرسية للأدب إذ حصرته بأبواب من الشعر وضروب محدودة ضيقة من الخطابة والنثر، قد حالت بين طلاب مدارسنا وبين اطلاعهم على تراثنا الفكري الحقيقي، فنحن نعرف الكثير عن أمثال الأخطل وجرير وبشار وأبي النواس وابن الرومي؛ بل حتى عن ديك الجن وابن لنكك، ولا نكاد نعرف شيئا عن الطبري وابن كثير والقرطبي، أو عن الشافعي أو الزمخشري والغزالي، أو عن أمثال ابن القيم وابن تيمية وابن حزم وغير هؤلاء جميعا من مئات المفكرين الإسلاميين، الذين يمثلون بحق الفكر الإسلامي، وهم فقط الذين يعطون صورة حقيقية مشرفة مشرقة عن الحضارة الإسلامية بكل ما فيها من عطاء وصفاء.

**أدبنا إلى أين؟**

وبناء على ما اتضح من مفهوم الأدب

الإسـلامي، أيـن يمكننـا أن نـضع أدبنـا العـربي الحديث، هو هو أدب إسلامي حقا؟.

إن الأدب – كـما يقـول كتابـه – ابـن بيئتـه، وانعكاس للحياة القائمة في المجتمع، وحياتنا فيها ملامح من الإسلام، كما أن فيها الكثير الكثير مما هو خارج عنه، ولسنا في معرض استقصاء مظاهر هذا الخروج في ميادين الحياة المختلفة من أنظمة الحكم والاقتصاد والاجتماع والقوانين والأخلاق، لكنني هنا أحب أن أتساءل أيهما أدى لوجود الآخر؟ هل الأدب هـو الـذي عمـل عـلى تفـشي هـذه المظـاهر وطغيانها، أم أن هذه المظاهر التي انبعث بعضها من داخلنا، واستوردنا أكثرها من وراء الحدود، وعبر البحار من حضارة الغرب هي التي مهدت لهذا الأدب الفارغ؟.

وكـذلك هنـا لا أريـد أن أقـف للبحـث عـن جواب لهذا التساؤل، فحسبنا أنه يفتح أمامنا سؤالا آخر هو، هل استطاع أدبنا المعاصر أن يؤدي دوره في حياتنا المعاصرة؟ وما هو هذا الدور الذي عليه أن يؤديه؟.

لا شك أن دور الأدب هو دور الرائد والقائد في جميـع ميـادين الحيـاة، يأخـذ بيـد المجتمـع نحـو الأفـضل في كـل شيء، كـما أنـه يـؤدي دور الـضابط المراقب لما يمكن أن يتفشى في المجتمع من انحراف أو خطإ، يقوم المنحرف ويصحح الخطأ.

**أدباؤنا والسلبية**

ونحـن لا ننكـر أن أدبنـا الحـديث فعـل بعـض ذلـك، وأدى مـا لا ينكـر مـن بعـض مـا يجـب عليـه، فقاوم الخرافة والجهل، كما قاوم الظلم والتخلف، ودعا إلى الحق والفضيلة. ولكن لم يفعل ذلك دائما، ولا فعله على الوجه الأكمل، كما أنه فعل ما يكاد يطغى على كل ما سبق من خير وفضل.

أمـا أنـه لم يفعـل فـإن هـذا واضـح مـن مواقـف الأدب السلبية من كثير من قضايا الحق والعدالة، إذ يشغل كثير من الأدباء بأنفسهم وذواتهم، ويعيشون في أبـراجهم العاليـة البعيـدة عـن مواقـع أمـتهم وشعوبهم(٣).

أمـا أنـه لم يفعلـه عـلى الوجـه الأكمـل، فـذلك واضـح مـن سـطحية الأعـمال الأدبيـة، التـي تتـصل بالقضايا العامة والمشكلات الاجتماعية، إذ لم يمنحوها من أنفسهم ما منحوه لأنفسهم من صدق وعمق.

أمـا أن الأدب فعـل مـا قـد ينـسف كـل خـير وفضل، فذلك أن كثيرا من أدبائنا قد أخذوا بما رأوا من حياة الغرب وحضارته، وأصابهم البهر، ففقدوا الكثير من أصالتهم، وضاعت عند الكثير من هؤلاء الأدبـاء معـالم الشخـصية المتميـزة، وأصـبح مـثلهم الأعلى ورائدهم هو ما ينتجه إنسان الحضارة الغربية الحديثة بكل ما فيه من تناقض وقلق وضياع، وزعم كثير منهم بأننا مضطرون أن نأخذ الحياة الغربية، ومثلها بكل ما فيها من أخطاء بحجة أن الحضارة كل لا يتجزأ.

**لابد من الأدب**

ومهما قال القائلون فالإنتاج مستمر والمطبعة

تقذف والقراء يتلقون، فكما لا يستغني الإنسان عن الطعام والشراب والنوم وغيرها من ضرورياته الأساسية، فهو لا يمكنه أن يستغني عن المعرفة والتزود منها، وكما يمكن أن تنحرف صحة الإنسان حين يتناول الخبيث الضار فيقتل نفسه، كذلك قد ينحرف سلوكه وتمرض نفسيته حين يتناول الأدب الضار الخبيث، والمسؤولية على من يقدم الفكر المنحرف والأدب الضال، وعلى من يتلقاه ويتقبله. إلا أن مسؤولية العارض المروج دائما أظهر وأبين، وجريمته في حق أمته ومجتمعه أشد وأنكى.

وما دام الأمر كذلك فالطريق الصحيح هو أن يحمل الأدب على العودة إلى طريق الحق، وذلك لصالح الأدب أولا حتى لا يكون داء وسما قاتلا، وليكون جديرا باسمه ورسالته إذ يكون إبداعه وجهده للبناء لا للهدم وللجد لا للضياع والقلق، ولصالح الحق نفسه ومصلحة الإسلام ذاته ثانية.

وذلك أن الأدب الجاد الهادف خير عون على رسالة الإسلام، وإحقاق الحق، وقد اتضح لنا فيما سبق خطورة الكلمة وأهميتها في نشر الدعوة أول أمرها.

**إلى كل أديب مسلم**

وإننا إذ ننظر في واقع الأدب الحديث، نفتقد الأدب الإسلامي افتقادا، يكاد يكون تاما في بعض الميادين، ولا أريد أن أستقصي ذلك وأحصيه، فحسبنا في هذا المثال، فالقصة على اختلاف أنواعها إذا استثنينا عددا قليلا منها – تكاد تخلو من أي قصص إسلامي، وخاصة في العشر السنوات الأخيرة.

وميدان آخر مهم وخطير ذلك هو المجلة الأدبية، وهي بلا شك منتدى الأدب، تلتقي فيها الأقلام ويتم في رحابها التعارف والتعاون بين عقول وأقلام تباعدت ديارها، ونجد في هذا الميدان أن معظم المجلات الإسلامية – إن لم يكن جميعها – تتجه نحو الفكر الإسلامي الخالص، وتعنى بالقضايا الفكرية، والأبحاث والدراسات، ولا تكاد تلتفت إلا قليلا للأدب على اختلاف ميادينه وتعدد أشكاله.

وأرى أن مسؤولية ذلك كله مزدوجة، فهي أولا على أولئك الذين يملكون القدرة على النشر من رجال الفكر الإسلامي، إذ عليهم أن يتجهوا هذه الوجهة، ويمنحوا الأدب ما يحتاجه من عناية وجهد، وثانيا على الأدباء المسلمين الذين اتجهوا إلى الدراسات والأبحاث الفكرية البحتة، وهجروا ميدان الأدب رغم قدرتهم عليه، وتمكنهم منه، وعلى أولئك الذين ضعف إنتاجهم من كل ذلك، وكأنهم ألقوا سلاحهم أمام صبيان الضياع والقلق(!!!).

* * *

**الهوامش**

(١) سورة الحجرات.

(٢) آخر سورة الشعراء.

(٣) ذلك حكم على الأدب والأدباء نترك الرأي فيه للمشتغلين بالأدب.

* * *

# من تـاريخ الجـامعة الإسلامية : دارالعلوم/ ديوبـند

**(الحلقة ١١٠)**

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه اللّه-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
**ترجمة وتعليق: محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري(*)**

**تراجم خريجي دارالعلوم/ديوبند:**

**١٠٢- الشيخ الدكتور/مصطفى أحسن العلوي رحمه الله:**

ولـــد عـــام ١٨٩٧م/ ١٣١٥هـ في أرض «كـاكوري» الخـصبة مـن ضـواحي مدينـة «لكنـاؤ»، واجتـاز مراحـل التعلـيم الأوليـة عـلى جـده مـن الأم الشيخ محسن الكاكوروي في «مين فوري»، ثم ألحق بنـدوة العلـماء /لكنـاؤ. وفي عـام ١٣٣٠هـ التحـق بدارالعلوم/ديوبند بترغيب من الشيخ الحافظ محمد أحمد رئيس الجامعة. يقول الدكتور العلوي: لازالت محـاضرات مـشايخي الدراسـية ماثلـة أمـام نـاظري. وتـذوق الـشعر بـالجلوس إلى الـشيخ تـاجور النجيب آبادي إبان دراسته في دارالعلوم/ديوبند، وكان حي الـديوان يـشهد الأمـسيات الـشعرية في تلـك الأيـام، وكان الدكتور العلوي يستخدم نظارة العين يومئذ، فقال بيتًا في هذا الصدد باللغة الأردية ما معناه:

«أقسم بـأني لـست راغبًـا في استخدام النظـارة، وإنما دفعني إلى ذلك ضعف بصري».

وهـوِي الكتابة النثرية في تلك الأيام بـالجلوس إلى الـشيخ منـاظر أحـسن الكـيلاني، وتخـرج مـن دارالعلوم/ديوبند عام ١٣٣٤هـ، وتطوع بالتدريس كمـدرس مـساعد فيهـا، ثـم قـام بالتـدريس أيامًـا في المدرسة الإمدادية ثم رجع إلى لكناؤ، واجتاز اختبار «المنشي الفاضـل» في جامعـة بنجـاب. وولي تـدريس العلـوم الدينيـة في المدرسـة الثانويـة /إتـاوه، ثـم عـين أستاذا للفارسية في كلية بنارس. ثـم عـين مدرسًـا في كليـة لكنـاؤ في أغـسطس عـام ١٩٢٣م/١٣٦٣هـ، وحـضَّر لمرحلـة «المـاجـستير» في الفارسـية خـلال وظيفته. ثم أعد بحثًا حول الملك الشاه السلجوقي وعهده، ونال درجة الدكتوراه.

وفي عـــام ١٩٦٠م/ ١٣٨٠هـ منحـــه رئـــيس الجمهورية الهندية شهادة فخرية ( Certificate of Honour) تحـت فئة الشخـصيات العربيـة البـارزة في الهنـد. وتقاعـد عـام ١٩٦٣م/١٣٨٣هـ مـن جامعـة لكنـاؤ، وعـين أسـتاذًا محققًـا، ولايـزال يـشغل هـذا المنصب إلى اليوم.

ألـف الـدكتور عـشرات الكتـب في اللغـات

(*) أستاذ الحديث واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

العربيــة والأرديــة والفارســية، وأدرج عــدد مــن مؤلفاته إلى المقررات الدراسية في المدارس والكليات العصرية، واختبارات الألسنة الشرقية. وطبع ١٥ كتابا مـن مؤلفاتـه، ولازال ٢٣ منهـا غـير مطبـوع. وعُيِّنَ عضوًا في المجلس الاستشاري بدارالعلوم/ ديوبند منذ عام ١٣٧٠هـ.

ويجمع الدكتور بين العلم والفضل وبين هواية الـشعر، وتحـتفظ ذاكرتـه بكـم هائـل مـن الأبيـات الشعرية، فإذا تطرق الحديث في المجلس إلى الشعر كان الدكتور لايمل سرد الأبيات الشعرية المتواصلة من ذاكرته.

**١٠٣- الشيخ وصي الله الأعظمي رحمه الله:**

ولـد في «فتحفـور تـال نرجـا» بمديريـة «أعظـم كره»، وحفظ القرآن الكريم في بلده على الحافظ ولي محمد رحمه الله، ثم قرأ الفارسية ومبادئ العربية في مدرسة جامع العلوم/كانفور، ثم التحق بدارالعلوم /ديوبنـد عـام ١٣٣٥هـ، واسـتكمل دراسـة الحـديث بهـا. وكـان ذلـك إبـان رئاسـة تـدريس العلامـة أنـور الـشاه الكـشميري رحمـه الله، وكـان الـشيخ وصي يحمل ذاكرة قوية جدًّا، تستحضر العلوم كلها.

بعد ما تخرج من دارالعلوم/ديوبند حضر إلى الشيخ أشرف علي التهانوي وانضم إلى حلقة بيعته. واعتزل كل الاعتزال. وكان قلبه عامرا بالرغبة في إصـلاح الأعـمال والعبـادة خـلال دراسـته. وتعـود الاعتزال منذ أيام تحصيله الدراسي، وظل مقطوع الصلة عن الخلق إبان نزوله في الخانقاه الإمدادية، وأكب متوكلا على الله تعالى- على السير في السلوك وتحصيل النسبة. وسرعان ما قطع مدارج التربية الباطنية والتصوف، ونال خرقة الخلافة والإجازة بالبيعة والتلقين. ولم يتزوج إلا بعد سنوات طويلة وبـأمر مـن حكـيم الأمـة أشرف عـلي التهـانوي عـام ١٣٤٣هـ، ورغـم ذلـك كـان يكثـر مـن النـزول في الخانقاه الإمدادية.

وعــاد إلى بلــده عــام١٣٥١هـ، واشــتغل في التعليم والتربية وإصلاح الخلق. ويعد الشيخ من أجلة خلفاء الشيخ أشرف علي التهانوي، وكان على دأب شيخه في التربية والإصلاح حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة.

بـدأ بالإقامـة في وطنـه، ثـم تحـول منـه إلى «كوركفور» عام ١٣٧٤هـ، وفي نهاية المطاف إلى «إله آبـاد»، وأنـشأ بهـا الخانقـاهَ. وانـضم كبـار العلـماء وأصـحاب الثـراء إلى حلقتـه. واسـتفاض منـه آلاف العبـاد الفيـوض الروحيـة. وقـام بخـدمات جليلـة في إحيـاء الـسنة مقتفيًـا آثـار مـشايخه في الطريـق، وكـان الشيخ يومئذ غنيمة باردة. وتردد إلى «مومباي» في بعـض الـسنوات الأخـيرة مـن عمـره، ونـشأت فيهـا حلقة من مريديه وأصحابه، فكم استقام من الناس على الطريق الصالح.

تـوفي في طريقـه إلى الحجـاز عـام ١٣٨٧هـ عـلى الـسفينة، وقـد التحـق مـسافر الـسفينة هـذا بـالرفيق الأعلى. ودفن في أحشاء البحر الأحمر.

وكـان كثـيرا مـا يتمثـل بـشعر المـيرزا غالـب- شـاعر أردي شـهير- في آخـر عمـره لغلبـة الكيفيـات عليه، ومعناه:

«لقد افتضحنا بالموت، وهلا غرقنا في البحر ... فلاتُحمل لنا جنازة، ولايبنى لنا ضريح»؟!

ولعلهم قالوا في مثل هذه المناسبة: ما يقوله القلندر يقوله بحق.

**من أعماله ما يلي:**

١. الإفادات الوصية.
٢. تلاوة القرآن.
٣. تعليم وتربية الأولاد.
٤. التذكير بالقرآن.
٥. التصوف والنسبة الصوفية.
٦. وصية الإحسان.
٧. وصية الأخلاق.
٨. وصية الإخلاص.
٩. بستان المعرفة.
١٠. ديباجة المعرفة.
١١. عاقبة الإنكار مع البحث عن المرشد.
١٢. مفتاح الرحمة.
١٣. الاعتقاد والإنكار.
١٤. خمارة الباطن.
١٥. ملفوظ طريق العمل.
١٦. سبيل الصفاء.
١٧. طريقة الإصلاح.
١٨. المقال الإصلاحي.
١٩. مقال حول النميمة.
٢٠. الأخوة.
٢١. توقير العلماء.
٢٢. تحذير العلماء.
٢٣. الجنة.
٢٤. نعم الأمير.
٢٥. الأصول النادرة.
٢٦. الأمر الفارق بين المخلص والمنافق.
٢٧. النعم على خير الأمم.
٢٨. النصيحة للمسترشدين.
٢٩. وصية السالكين.

**١٠٤- الشيخ المفتي محمد شفيع الديوبندي رحمه الله:**

ولد عام ١٣١٤هـ/١٨٩٦م، وسماه الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي بـ«محمد شفيع»، وأصله من ديوبند، وتلقى العلوم في دارالعلوم/ديوبند. وتخرج في العلوم وهو ابن ٢٢ عامًا سنة ١٣٣٦هـ. ثم عين مدرسًا في المراحل الابتدائية في دارالعلوم/ديوبند عام ١٣٣٧هـ، وسرعان ما قطع أشواط التقدم والرقي حتى انضم إلى الطبقة العليا من الأساتذة. وكان له مناسبة مع الفقه والأدب منذ أول أمره. وولي منصب الإفتاء عام ١٣٥٠هـ/١٩٢٢م. وهاجر إلى باكستان عام ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، وساعد بها على ترتيب الدستور الإسلامي بصفته عضوًا في المجلس التشريعي للتعليمات الإسلامية. وأنشأ في كراتشي عام ١٩٥١م مدرسةً دينيةً سماها «دارالعلوم».

كان الشيخ يتصف بالعلم الواسع العميق، ومن العلماء البارزين في جماعة ديوبند، وكان له كفاءة طيبة في معظم العلوم الدينية المتداولة. وله كتب دينية كثيرة. وكان التصنيف هوايته منذ أول عمره، وخرج من يراعه كم كبير أنفع من المؤلفات

في التفسير والحديث والفقه والمناظرة. ويبلغ عدد مؤلفاته صغيرها وكبيرها نحو مئتين. ويبلغ عدد مؤلفاته في الفقه فقط (٩٥) كتابًا. واختص بدراسة النوازل والقضايا المستجدة في الفقه. ويشكل ذلك خزينة غالية من العلوم والمعارف للعامة والخاصة. ويبلغ عدد الفتاوى التي أصدرها نحو مئتي ألفٍ. وكانت إذاعة باكستان تنشر جزءًا من تفسيره المسمى بمعارف القرآن كل أسبوع، ولقي القبول العام. وقد طبع هذا التفسير باسم «معارف القرآن» في ثمانية مجلدات. ويعتبر «تفسير معارف القرآن» عملا عبقريًّا للشيخ محمد شفيع. وله مئات من التلامذة ينتشرون في مختلف البلاد خارج شبه القارة الهندية ويقومون بخدمات دينية. وكان بايع أولًا شيخ الهند محمود حسن الديوبندي، وبعد وفاته أقبل على الشيخ أشرف علي التهانوي، ونال منه خرقة الخلافة. وكان الشيخ التهانوي يثق ثقة كبيرة بعلم المفتي محمد شفيع وفضله. ومن أبرز ما يمتاز به المفتي محمد شفيع أنه كان أشرب مذاق السلف الصالح، وملئ به إلى مشاشه. وكان يرى من الواجب اتباع السلف في كل الفروع والجزئيات. واشتغل بجانب تدريس العلوم الدينية- بالإفاضة الباطنية. وكان له هواية الشعر أيضًا. وله قصائد ومراثٍ وأبيات في اللغات العربية والفارسية والأردية مطبوعة. ويحتل مكانة «المفتي العام» في باكستان، وبه يدعى.

توفي في ليلة ١١/شوال عام ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

وأرخوا لوفاته بـ«فقيه الأمة جناب الحاج مولانا مفتي محمد شفيع». وهي عام ١٩٧٦م.

**١٠٥- الشيخ السيد ميرك شاه الكشميري رحمه الله:**

أصله من «كشمير»، تخرج من دارالعلوم/ ديوبند عام ١٣٣٦هـ، وكان من أبرز تلامذة العلامة أنور شاه الكشميري. وكان له علم عميق بالمنقول والمعقول. وبعد ما تخرج من دارالعلوم/ ديوبند عمل مدرسًا في عدد من المدارس في «دربنجه»، و«مرادآباد». وعين مدرسًا في دارالعلوم/ديوبند عام ١٣٤١هـ، وبجانب التدريس بدارالعلوم/ديوبند أرسلته – دارالعلوم- للدعوة والإرشاد في «ملكانه راجبوت» بمدينة «آغرا» إبان حركة «التحويل إلى الهندوسية» (Shuddhi) وحركة «الاندماج»[1] (Sangthan)، وكان الشيخ ميرك يشرف على الدعاة الذين أرسلهم دارالعلوم/ديوبند إلى مدينة «آغرا» وضواحيها. فقام بأعبائه بجد واجتهاد بالغين. ثم تحول في أواخر عام ١٣٤٤هـ إلى «لاهور»، وانضم إلى سلك التدريس في الكلية الشرقية. ثم ولي رئاسة التدريس في الجامعة المدنية /لاهور في آخر المطاف. وقام بترجمة كتاب الأسفار الأربعة لصدر الدين الشيرازي لصالح الجامعة العثمانية/حيدر آباد، دكن.

ولم يمض إلا أعوام على وفاته في «لاهور».

==========

(١) للاستزادة منه راجع: الباب الثاني من مساعي دارالعلوم/ديوبند للحفاظ على الدين.

* * *

# وجوب التقليد الشخصي
# وما يترتب على تركه من أضرار فادحة

بقلم: **الشيخ الكبير المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي**
المعروف بـ«حكيم الأمة» (١٣٦٢هـ/١٩٤٣م)
تعريب: **الأستاذ أبو عبد الله أشرف عباس القاسمي**(*)

**المقصد الرابع: ثبوت التقليد الشخصي ومعناه:**

الحديث الأول: عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: إنّي لا أدري ما قَدْرُ بقائي فيكُم فاقتَدوا باللَّذَينِ مِن بعدي وأشارَ إلى أبي بكرٍ وعمرَ واهتَدُوا بِهدْيِ عمَّارٍ وما حدَّثَكم ابنُ مسعودٍ فصدِّقوهُ(١).

**فائــدة:** المراد بقوله: «من بعدي» لزوم اقتدائهما في زمن خلافتهما، أما قبل ذلك فكان النبي ﷺ، على قيد الحياة، فليس معناه إلا الأمر باقتدائهما واتباعهما إذا وُلِّيَا الخلافة، والظاهر أن الخليفة لايكون إلا واحدًا في وقت واحد، فحاصل الأمر أن اتبعوا أبا بكر في خلافته، واتبعوا عمر في خلافته، فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باقتداء شخص معين إلى زمن محدد، ولم يأمرهم بطلب الدليل على الأحكام، ولم تكن العادة مستمرة أن يُطلبَ الدليل في كل نازلة، وهذا هو التقليد الشخصي، فحقيقة التقليد أن أحدا إذا عرضت له مسألة لايراجعْ فيها إلا عالما واحدا إذا وجد عنده مرجحًا، ولا يعمل بها إلا بعد أن يسأله عنها. وليس الغرض هنا الكلام على وجوبه؛ فإنه سيأتي قريبًا. وإنما المقصود هنا هو إثبات أن التقليد الشخصي مشروع جائز يوافق السنة، وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المذكور أعلاه هو الآخر يؤكد ثبوت التقليد، وإن كان لزمنٍ محدد.

**الحديث الثاني:**

عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ أَتَانَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ بِالْيَمَنِ مُعَلِّمًا وَأَمِيرًا فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَجُلٍ تُوُفِّيَ وَتَرَكَ ابْنَتَهُ وَأُخْتَهُ فَأَعْطَى الِابْنَةَ النِّصْفَ وَالْأُخْتَ النِّصْف(٢).

قد سبق الحديث بعنوان «الحديث الرابع في المقصد الأول»، فالحديث كما يدل على سنية التقليد «كما قررناه هناك» يثبت به التقليد الشخصي كذلك؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بعث معاذا إلى اليمن ليبين للناس الأحكام والشرائع، فقد أَذِنَ ضِمْنَ ذلك لأهل اليمن أن يراجعوه في كل مسألة، وهذا هو التقليد الشخصي، كما حققناه آنفا.

**الحديث الثالث:**

سُئِلَ أَبُو مُوسَى عَنْ بِنْتٍ، وَابْنَةِ ابْنٍ، وَأُخْتٍ، فَقَالَ: لِلْبِنْتِ النِّصْفُ، وَلِلْأُخْتِ النِّصْفُ، وَأْتِ ابْنَ مَسْعُودٍ، فَسَيُتَابِعُنِي. فَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَأُخْبِرَ بِقَوْلِ أَبِي مُوسَى، فَقَالَ: لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ

(*) أستاذ بالجامعة.

الْمُهْتَدِينَ، أَقْضِي فِيهَا بِمَا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ: لِلْابْنَةِ النِّصْفُ، وَلِابْنَةِ ابْنٍ السُّدُسُ، تَكْمِلَةَ الثُّلُثَيْنِ، وَمَا بَقِيَ فَلِلْأُخْتِ. فَأَتَيْنَا أَبَا مُوسَى فَأَخْبَرْنَاهُ بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: لَا تَسْأَلُونِي مَا دَامَ هَذَا الْحَبْرُ فِيكُم(٣).

**فائـــدة:** فقـول أبي موسـى الأشـعري «لا تَسْأَلُونِي ما دَامَ هذا الحَبْرُ فِيكُمْ». بمجرد النظر إلى ظاهره يتجلى لكل أحد أن أبا موسى أمر بالرجوع إلى ابن مسعود في كل قضية فقهية، وهذا هوالتقليد الشخصي الذي يعني اتباع الرجل شخصًا معينًا، على تقدير أنه محق، بلا نظر وتأمل في الدليل.

**المقصد الخامس: معنى وجوب التقليد، ولزومه نظرا إلى غالب أحوال الناس:**

قبل الخوض في البحث نذكر لكم معنى وجوبه؛ ليتعين الدعوى، فليُعلم أن كون الشيء واجبا على نوعين: الأول: أن يؤكد القرآن أو الحديث على العمل به، تأكيدا خاصا، كالصلاة والصوم وغيرهما ويسمى مثل ذلك وجوبًا بالذات، والثاني أن لايكون التأكيد على ذلك مستنبطا من القرآن والسنة مباشرةً، ولكن لايمكن العمل بما جاء في الكتاب والسنة صراحة إلا بالعمل بهذا الأمر عادةً، فهذا الأمر كذلك يكون بمثابة الواجب، وهو مفهوم ما قاله العلماء: مقدمة الواجب واجبة. كما أن جمع القرآن وتقييده بالكتابة لم يرد الشرع بوجوبه؛ بل ورد التصريح بعدم وجوب الكتابة لحديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نَكْتُبُ ولَا نَحْسُبُ(٤).

**فائدة:** دلالة الحديث واضحة على ما ندعيه، ولما لم يجب مطلق الكتابة فكيف تجب الكتابة الخاصة؛ ولكن ورد التأكيد على صيانة الكتاب والسنة ووقايتهما عن الضياع. وشهدت التجارب والمشاهدات أنه يتعذر الحفاظ عليهما في الغالب إذا لم يُقَيَّدا بالكتابة، فيكون كتابتهما من الأمور اللازمة، فلم يزل ولايزال اتفاق الجميع على الوجوب دلالة. وهذا الوجوب هو الوجوب بالغير. ولما عُلم الوجوب بقسميه وتجلت حقيقتهما فيجب أن نعلم أن وجوب التقليد الشخصي هو بمعنى أنه واجب بالغير لا أنه واجب بالذات. فلا يجب إثباته بآيات وأحاديث فيها تصريح بالأمر المؤكد باسم التقليد الشخصي، كما لا يُطلبُ الدليل على وجوب كتابة القرآن الكريم والسنة النبوية؛ بل يقال: إنه واجب، مع أن نفي الوجوب مصرَّح به في الحديث المذكور أعلاه، ولا يُعتبر ذلك مخالفة للحديث النبوي الشريف، فكذلك هٰهنا لا يجب إثبات وجوب التقليد الشخصي بالنص الصريح، نعم يجب هناك إثبات المقدمتين: الأولى: ما هي الأمور التي يتطرق إليها الفساد بترك التقليد الشخصي، والثانية: أن تلك الأمور واجبة. أما بيان المقدمة الأولى فهي كما يلي:

الأمر الأول: إخلاص النية في العلم والعمل، ولايبتغي بهما إلا الدين.

الثاني: غلبة الدين على هوى النفس أي يكون هواه تبعًا للدين ولا يكون الدين تبعًا لهواه.

الثالث: أن يجتنب ما يكون سببا قويًّا لضرر في دينه.

الرابع: عدم الخروج عما أجمع عليه أهل الحق.

الخـامس: عـدم الخـروج عـن إطـار الأحكـام الشرعية.

أما تطرق الخلل إلى هذه الأمور بترك التقليد فهو يرجع إلى التجربة والمشاهدة. والسر في ذلك أن غالب الطبائع في هذا الزمان قد عمّها الفسادُ وحبُ الـذات والنفعيـةُ، كـما هـو الظـاهر، وقـد جـاءت الإشارة إلى ذلك في أحاديث الفتن، كما لايخفى على حمَلة العلم. فإن لم يلتزموا بالتقليد الشخصي فهناك ثلاث صور:

**الصورة الأولى:**

منهم من يتجرؤون على الاجتهاد ظنًّا منهم أنهم قد ارتقوا منزلة الاجتهاد، ويزعمون أن الاجتهاد في الأحاديث لم يختص بجماعة دون جماعة، ويستدلون على ذلك بما يؤيد موقفهم من الأحاديث التي تؤكد جواز الاجتهاد، ويدعون أنهم عالمون، ومطلعون على ما في القرآن الكريم ومشكاة المصابيح من معانٍ، اعتمادا على مجرد قراءتهم لها باللغة الأردية، أو مجرد سماعهم أو فهمهم لها من عالم ديني، فكيف لا يُوضع اجتهادهم موضع الاعتبار؟ وإذا كان الاجتهاد عامًّا، فلا تعجب مما يتداخل الأحكامَ من التحريف والتبديل؛ فإنه قد يقول قائل مثلا: «المجتهدون السابقون علّلوا بعض النصوص بقوة اجتهادهم، وكان ذلك معتبرًا ومقبولا كما مضى بيانه بشيء من التفصيل في المقصد الثاني؛ فكذلك يسوغ لي أن أقول: حكم وجوب الوضوء معلل بعلة، وهي أن غالب سكان العرب كانوا رعاةً للإبل والغنم وربما تتلطخ وتتلوث أيديهم بقطراتها ورشاشاتها، وكانت تصل أيديهم القذرة إلى وجوههم، فأُمروا بالوضوء لتبقى الأعضاء طاهرة نقية، والقرينة أن الأعضاءَ المأمورَ بغسلها في الوضوء هي التي تكون مكشوفة في الغالب، ونحن نغتسل كل يوم ونجلس ونستريح في أمكنة تكون بمأمن من الأقذار والنجاسات، فتبقى أجسامنا طاهرةً نظيفةً فلا يجب علينا الوضوء، وإنما تجوز الصلاة بلاوضوء». مع أن التمييزَ بين الحكم المعلل بعلة وبين الحكم التعبدي غيرِ المعلل، إنما هو نصيب الأئمة المقبولين، ولا يجوز لأحد أصلا أن يتدخّل في ذلك برأيه.

وكذلك قد يقول قائل مثلا: وجوب الإعلان بالنكاح وحضور الشهود فيه ليس من المقصود؛ بل هو معلل بعلة أن الزوجين إذا وقع الشقاق بينهما وآل الأمر إلى الخصومة، لم يكن من الصعوبة بمكانٍ تحقيقُ حالها، فإذا كان احتمال الشقاق منتفيا، فلا مانع لجواز النكاح بلاشهود.

وكذلك قد يزعم زاعم عن الأحكام المنسوخة بإجماع الأمة، أنها غير منسوخة، كأن يعتقد جواز المتعة.

هذه الأمثلة الثلاثة قد تحقق وقوعها، ولا يخفى ما تحوي هذه الأقاويل من تحريف الأحكام ورفضِ ما أجمعت عليه الأمة، وإنما هو ناشئ عن ترك الأمر الرابع من الأمور الخمسة المذكورة؛ لأن حقيقة الإجماع هو اتفاق جميع العلماء المعاصرين على حكم شرعي، وإن شذ أحد عنهم خطأً أو عمدًا، فقد لا يجد دليلا يحتمل الصحة، ويُعتَبَر هو معذورا إذا أخطأ، والظاهر أن أحكام الأمثلة المذكورة

ليست إلا من هذا القبيل، واختلاف بعض الناس في قضية المتعة غير قادح في صحة الإجماع لعدم استناده إلى دليل صحيح. فالحاصل أن عدم الشركة على الإطلاق لايضر قيام الإجماع، وبدون ذلك يتعذر القولُ بأن القرآن الكريم محفوظ ومتواتر؛ فإنه قد ثبت بما رواه البخاري أن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَعتبر آياتِه المنسوخة تلاوتها من القرآن، وأبو الدرداء يرى أن «وما خلق الذكر والأنثى» من سورة «والليل» خارج عن القرآن، وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرى هذا الرأي في المعوذتين، وإن لم تستمر هذه الأقوال إلا لمدة قليلة؛ ولكن يلزم منه أن دخول الجزء في القرآن وخروج غير الجزء منه لايبقى مُجمعا عليه ومجزوما به في كل عصر، ولا قائل به أحد حتى لساعة من الزمن؛ بل كلهم لازالوا يعتقدونه – في كل زمن من الأزمان حقًّا ومحفوظًا من أن يداخله شكٌّ، ولكن لما ثبت خطؤهم في الاستدلال بيقين، لم يعتبره أحد من السلف والخلف قادحا للإجماع، وعَذَرَهم لشبهة ساورتهم. وتلك الأحاديث والآثار كما يلي:

**الحديث الأول:**

عن ابن عباس قال: قالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنْه: أَقْرَؤُنَا أُبَيٌّ، وأَقْضَانَا عَلِيٌّ، وإِنَّا لَنَدَعُ مِن قَوْلِ أُبَيٍّ؛ وذَاكَ أَنَّ أُبَيًّا يقولُ: لا أَدَعُ شيئًا سَمِعْتُهُ مِن رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقدْ قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ (البقر:١٠٦)[٥].

**الحديث الثاني:**

عن علقمة قال دخلت في نفر من أصحاب عبدالله الشام فسمع بنا أبو الدرداء فأتانا فقال أفيكم من يقرأ فقلنا: نعم. قال: فأيكم أقرأ فأشاروا إلي: فقال: اقرأ، فقرأت والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والذكر والأنثى قال أنت سمعتها من في صاحبك قلت: نعم، قال: وأنا سمعتها من في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهؤلاء يأبون علينا[٦].

**الحديث الثالث:**

عَنْ زِرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ قُلْتُ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ إِنَّ أَخَاكَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا.

فَقَالَ أُبَيٌّ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَ لِي «قِيلَ لِي»: فَقُلْتُ.

قَالَ: فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ –ﷺ–[٧].

(كذا وكذا) أي أن المعوذتين ليستا من القرآن يعني أنه لم يثبت عند ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القطع بذلك ثم حصل الاتفاق بعد ذلك.

**فائدة:** فهذا الخلل ينشأ في عموم الاجتهاد، ومن الممكن أن يتقدم أحد ليتبع مثل هذا الاجتهاد.

**والصورة الثانية:**

أن لايجتهد بنفسه ولا يعمل باجتهاد الآخر زعمًا منه أن الاجتهاد لايجوز؛ بل يأخذ بظاهر الحديث، فمن الفساد الذي ينشأ منه أنه لن يعمل باجتهاده أو باجتهاد الآخر في الأحكام التي تسكت عنها النصوص، لأنه لايرى جواز الاجتهاد، ولما كانت تلك الأحكام ليست منصوصة ومصرحا بها في النصوص، فلا يبقى له سبيل إلا أن يترك العمل ويتعطل ويختار البطالة. وهذا ترك الأمر الخامس من الأمور الخمسة التي تم ذكرها. ومثل هذه الأحكام

توجد بكثرة كاثرة يعسر إحصاؤها، ويتجلى ذلك من خلال مطالعة الفتاوى الجزئية.

والفساد الثاني الذي يترتب على ذلك هو أن هناك أحاديث لايجوز العمل حتمًا بظاهر معناها، كالحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس أن رَسول اللهِ ﷺ صَلَّى الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا بالمَدِينَةِ، في غيرِ خَوْفٍ، وَلَا سَفَرٍ (رواه مسلم، حديث رقم:٧٠٥). مع أنه لم يقل أحد بجواز الجمع الحقيقي دونما عذر، كما يفهم من ظاهر الحديث، ولذلك يؤَوّل في الحديث بقوة الاجتهاد، فالعمل بظاهر هذه الأحاديث يؤدي إلى مخالفة الإجماع، وفيه تركٌ للأمر الرابع.

**والصورة الثالثة:**

أن لايجتهد بنفسه ولا يعمل بظاهر الحديث؛ بل يقلد العلماء المجتهدين في النوازل الفقهية المستصعبة تقليدًا عامًّا دونما تشخيص وتعيين. فتارة يتبع أحدا من المجتهدين وتارة يأخذ بقول آخر، ففي بعض الأحوال تلزم مخالفة الإجماع، مثلا توضأ رجل ثم سال منه الدمُ الذي ينقض الوضوء، ولكنه قال أنا آخذ بقول الشافعي الذي يقول: «الدم لا ينقض»، وبعد ذلك مس امرأته، وهذا يوجب الوضوء عند الشافعي، فقال: أختار في ذلك فتوى الإمام أبي حنيفة الذي لايرى في ذلك نقض الوضوء، وصلّى دون أن يعيد الوضوء؛ وفي الحقيقة انتقض وضوؤه بلاخلاف بين العلماء وإن اختلفت أسبابه، ففسدت صلاته في قولهم جميعًا، وفيه تركٌ للأمر الرابع من الأمور المذكورة، وفي بعض الأحيان وإن لم يلزم مخالفة الإجماع ولكن نفسه تتوق لغلبة الهوى إلى ما يوافق هواه ويخدمُ مصلحته الدنيوية، فلا يأخذ بذلك القول على أنه من الدين؛ بل لأنه يوافق غرضه ومصلحته، فيكون دينه دائما تبعًا لِهواه، ولا يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يؤدي إلى ترك الأمر الثاني من الأمور الخمسة المذكورة سابقا، والظاهر أن مثل هذا الشخص لايبتغي بعمله ونيته إلا أن يصيب حظ نفسه وما يريده من ثروات الدنيا، فإذا لم يجد قول إمام يوافق رأيه، أخذ بقول الآخر، فلم تبق نيته خالصة لوجه الله ولابتغاء مرضاته في العلم والعمل. وهذا يرجع إلى ترك الأمر الأول من الأمور المذكورة، ومن تعودت نفسه هذه العادة، فليس ببعيد – بل القريب الغالب أن تتخطى هذه الحرية في مدة قليلة حدودَ الفروع، وتتسرب إلى الأصول، وفيه ضرر فادح للدين، فإنه يتضمن مخافة قويةً لضرر في دينه؛ وهذا ترك الأمر الثالث من الأمور المذكورة. فتجلى – ولله الحمد – بهذا كله أن ترك التقليد يؤدي – بلا شك– إلى الخلل في هذه الأمور الخمسة المذكورة فيما يلي:

- الأول أن تكون نيته خالصة لوجه الله تعالى في العلم والعمل.
- الثاني: أن يكون دينه غالبا على هواه، أي يكون هواه تبعًا للدين ولا يكون الدين تبعًا لهواه.
- الثالث: التجنب مما يخاف منه الضرر في دينه خوفًا قويًّا.
- الرابع: عدم الخروج عما أجمع عليه أهل الحق.

• الخامس: عدم الشذوذ عن إطار الأحكام الشرعية. والتقليد الشخصي هو الطريق الذي يضمن درءًا لهذه المفاسد ويرشد إلى ما فيه السداد. فقد ثبتت المقدمة الأولى.

أما المقدمة الثانية فهي أن الأمور الخمسة واجبة بذاتها فقد ثبتت بالأحاديث الصريحة.

**الحديث الأول:**

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي حَفْصٍ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»(٨).

**فائدة:** قد ظهر بهذا الحديث وجوب إخلاص النية، فالهجرة عمل جليل يُغفر بها جميع ما تقدم من الذنوب كما نص عليه الحديث الآخر، ولكن إذا شابَتهامصلحة دنيوية ذهبت سُدى؛ بل ورد الزجر واللوم عليه ولا يكون إلا على ترك الواجب.

**الحديث الثاني:**

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ تعلَّم علْمًا ممَّا يُبْتَغى به وَجْهُ الله عز وجل لا يَتعلَّمُه إلا لِيُصِيبَ به عَرَضًا من الدنيا، لمْ يَجِدْ عَرْفَ الجنة يومَ القيامة»(٩).

**فائدة:** فيه زجر أكيد و وعيد شديد على من تعلم علما أو استفتى في شيء ونوى أنه يتوسل به إلى ثروة من الدنيا، فالحديث كذلك يدل على وجوب الأمر الأول.

**الحديث الثالث:**

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»؛ رواه في شرح السنة، وقال النووي في أربعينه: هذا حديثٌ صحيح، رويناه في (كتاب الحجة) بإسنادٍ صحيحٍ.

**فائدة:** وجوب الأمر الثاني ظاهر بهذا الحديث.

**الحديث الرابع:**

عن النعمان بن بشير في حديث طويل قال رسول الله ﷺ: من وقع في الشُّبهاتِ وقع في الحرامِ، كالراعي يرعى حول الحِمى يوشكُ أن يرتعَ فيه، ألا وإنَّ لكلِّ ملكٍ حمًى، ألا وإنَّ حمى اللهِ محارمُه(١٠).

**فائدة:** ثبت بهذا الحديث أن ما يخاف منه الوقوع في الحرام يجب اجتنابه. وهذا هو الأمر الثالث وهذا هو معنى ما اشتهر من القول من أن مقدمة الحرام حرام.

**الحديث الخامس:**

عن عطية بن عروة السعدي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قالَ: قال رسولُ الله -ﷺ-: «لا يَبْلُغُ العبدُ أنْ يكونَ من المتقينَ حتى يَدَعَ ما لا بَأسَ بِهِ، حَذَرًا مِمَّا به بَأسٌ»(١١).

**فائدة:** ولما كان التقوى واجبا بنص القرآن «اتقوا» وهو موقوف على ترك ما يخاف منه الوقوع في المعاصي، ثبت وجوبه كذلك، فلاحديث كذلك يدل على وجوب الأمر الثاني.

**الحديث السادس:**

عن أبي مالك يعني الأشعري، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله أجاركم من

ثلاث خلال: أن لا يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا جميعا، وأن لا يظهر أهل الباطل على أهل الحق، وأن لا تجتمعوا على ضلالة(١٢).

**الحديث السابع:**

عن معاذ بن جبل، عن رسول الله ﷺ: «إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، وإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة(١٣).

**الحديث الثامن:**

عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»(١٤).

**فائدة:** فمجموع الأحاديث الثلاثة يدل على أن ما أجمعت الأمة عليه لن يكون ضلالا، فمن البديهي أن ما يضاده ويخالفه ضلالٌ البتة، كما قال تعالى: فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ (يونس:٣٢). وأكد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ملازمة الجماعة وأوعد على مفارقتها، فلا يجوز مخالفة الإجماع ويُعتبر ذلك وقوعا في الضلالة. فيجب العمل بمقتضى الإجماع، وثبت بذلك وجوب الأمر الرابع.

**الحديث التاسع:**

عن ابن عباس قال: قال علي لعمر رضي الله عنهما: يا أمير المؤمنين، لقد علمت أن رسول الله ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاثة، عن الصبي حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المعتوه حتى يبرأ»(١٥).

**فائـــدة:** هـذه مسألة بديهية لا تحتاج إلى الاستدلال، وقد عُلم من الحديث أن جميع الناس مخاطَبون بالأحكام التكليفية سوى من استثناهم الشرع ممن رُفع عنهم القلم. وقد نص عليه القرآن الكريم، قال تعالى: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (المومنون:١١٥) وقال تعالى: أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (القيامة:٣٦).

فثبت بذلك وجوب الأمر الخامس كذلك، ووجوب الأمور الخمسة هو المقدمة الثانية. فثبتت المقدمتان للدليل، وثبت المدعى وهو وجوب التقليد الشخصي. ولله الحمد.

* * *

**الهوامش:**

(١) صحيح الترمذي، الرقم:٣٧٩٩.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الفرائض، الرقم:٦٧٣٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الفرائض باب ميراث ابنة الابن مع بنت، حديث رقم:٦٧٣٦.

(٤) رواه البخاري (١٨٤٠) ومسلم (١٠٨٠).

(٥) رواه البخاري، الحديث، رقم:٤٤٨١.

(٦) صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن، حديث رقم: ٤٦٥٩.

(٧) صحيح البخاري، حديث رقم: ٤٩٧٧.

(٨) رَوَاهُ الإمام مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيل الْبُخَارِيُّ (رقم:١)، وَالإمام مُسْلِم بنُ الْحَجَّاج الْقُشَيْرِيُّ النَّيْسَابُورِيُّ (رقم:١٩٠٧) رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي «صَحِيحَيْهِمَا».

(٩) رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد.

(١٠) أخرجه البخاري:٥٢، ومسلم: ١٥٩٩.

(١١) سنن الترمذي (حديث رقم: ٢٤٥١).

(١٢) سنن أبي داود، كتاب الفتن والملاحم باب ذكر الفتن ودلائلها (حديث رقم: ٤٢٥٣).

(١٣) مسند أحمد، تتمة مسند الأنصار حديث معاذ بن جبل (حديث رقم:٢٢١٠٧).

(١٤) سنن أبي داود، كتاب السنة باب في قتل الخوارج (حديث رقم: ٤٧٥٨).

(١٥) سنن أبي داود، كتاب الحدود باب في المجنون يسرق أو يصيب حدا (حديث رقم: ٤٤٠٢).

* * *

# الحج .. ووحدة الأمـــة

بقلم: الشيخ د./ يوسف جمعة سلامة

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج:٢٧).

يتطلع كل مسلم لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام وهو حج بيت الله الحرام، حيث يتعلق قلبه وفؤاده بمشاهدة هذه الأماكن المقدسة التي فضلها الله تعالى وبارك فيها، يستوي في ذلك الغني والفقير، والقريب والبعيد، لأن حب المسلم له غريزة مطبوعة في نفسه، استجابة لدعوة أبينا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم:٣٧).

وما تكاد أشهر الحج تهل على العالم الإسلامي حتى تشتعل قلوب المسلمين بالشوق إلى بيت الله الحرام، وما جاوره من أماكن مقدسة، وزيارة مسجد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وغيره من المشاهد الإسلامية العظيمة في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

إن الحج اجتماع جامع للمسلمين قاطبة، يجدون فيه أملهم العريق الضارب في أعماق الأمة منذ سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، فهو فريضة تأتلف فيها مصالح المسلمين وتجتمع منافعهم وتتجدد الروابط بينهم، وتصدق العزائم عند اللقاء الكريم.

ومن المعلوم أن الله قد عظم بيته الحرام وجعله للمسلمين قبلة، كلما قاموا إلى الصلاة توجهوا إليه فرضًا ونفلًا، وفرض عليهم الحج إليه وأمرهم بالعمرة، وجعل الجزاء العظيم لمن حج بيته العتيق حجًا مبرورًا بأن يغفر له ذنوبه، كما جاء في الحديث: (من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) (متفق عليه)، والحج المبرور هو الذي يكون خالصا لوجه الله وعلى الوجه الشرعي.

وفريضة الحج المقدسة هي أغلى وأسمى مناسبة في تاريخ الأمة الإسلامية، نسترجع فيها ذكريات الماضي العريق، التي تعود إلى أعماق التاريخ حين كانت مكة المكرمة واديًا قفرًا غير ذي زرع، وأرضًا جرداء لا زرع فيها ولا ماء، صحراء

قاحلة مقفرة ليس بها إنسان أو طير أو حيوان، يأتي أبو الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليقوم برفع قواعد الكعبة المشرفة في هذا المكان المقفر، لكن معجزة الواحد القهار الذي يقول لشيء كن فيكون، تغير ملامح المكان بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى أبا الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أن يؤذن في الناس بالحج، وتقبل أفواج الحجيج من كل صوب وحدب إلى هذه الأرض المقفرة لتتحول إلى أرض النور والقداسات والطهر.

وتتوالى مواكب الحجيج عبر العصور والأزمان إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أي ناد في الناس بالحج داعيًا لهم لحج هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذكر أنه قال: يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل على الحجر، وقيل على الصفا، وقيل على أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله له أن يحج إلى يوم القيامة لبيك اللّٰهم لبيك.

إن الحج خامس أركان الإسلام، وقد فرضه الله على المستطيع مرة في العمر لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران:٩٧)، ومن سور القرآن سورة سميت باسمه (سورة الحج) افتتحت بنداء البشرية قاطبة إلى الإيمان بالله وتذكيرهم بيوم البعث وما فيه من الهول العظيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، وختمت السورة بما امتن الله به على عباده المسلمين ومنهم حجاج بيت الله، أن اصطفاهم من بين البشر فوفقهم للإيمان وسماهم مسلمين ورفع عنهم الحرج وأمرهم بالاعتصام بحبل الله ليكونوا شهداء على الناس يوم القيامة بل وفي الدنيا، لما عندهم من العدل والإنصاف نتجية ما يقومون به من تحقيق العبودية لله من صلاة وصيام وزكاة وجهاد ودعوة في سبيل الله: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (الحج:٧٨).

وفي الحج تتجلى رحمة الله بعصاة المسلمين، لأنه من أفضل الأعمال التي يقبلها الله ويكفر بها

ذنـوب العاصـين، فقـد سـئل رسـول الله ﷺ أي الأعـمال أفضل؟ قـال: (إيـمان بـالله ورسـوله)، قيـل: ثـم مـاذا؟ قـال: (ثـم جهـاد في سـبيل الله)، قيـل ثـم ماذا؟ قال: (حج مبرور) (متفق عليه)، وقال ﷺ: (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) (متفق عليه).

إن الحـج مـلاذ كـل المـسلمين العابـدين والعاصـين، فالعابـدون يـزدادون قربًـا مـن مـولاهم بوفـادتهم عليـه في بيتـه، والعـصاة يـستروحون عبـق الرحمـات في تلـك الأجـواء الإيمانيـة الآمنـة ليقـروا بذنوبهم، آملين رحمة الله بعفوه ومغفرته ورضوانه، مجـددين العهـد عـلى الطاعـة وإخـلاص العبوديـة لمولاهم الغفور الرحيم.

إن الحج مؤتمر عالمي يتكرر كل عام مرة يعقد في الأرض المباركة بجوار الكعبة تحت شعار «أمة واحدة» قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٩٢).

ووحدة المسلمين في الحج تشمل عدة مظاهر من الوحدة يتعايش الناس على ضوئها:

١- وحـدة الأصـل: قـال تعـالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣)، وفي الحديث (ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى) (أخرجه البيهقي).

٢- وحدة الزمان: قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ (البقرة:١٩٧).

٣- وحدة المكان: قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ (المائدة:٩٧)، وقوله أيضًا: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ﴾ (البقرة:١٢٥).

٤- وحدة في الشكل والمظهر تتجلى في لباس الإحرام المكون من إزار ورداء أبيضين، هو لباس كل الحجيج استعاضوا به عن لباسهم المعتاد في حياتهم العادية.

ومن المعلوم أن الحج يستمد عالميته من عالمية الإسلام الذي جاء رحمة للناس كافة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ:٢٨).

فما أحوج الأمتين العربية والإسلامية بصفة عامة، وشعبنا الفلسطيني المرابط بصفة خاصة إلى الوحـدة، خـصوصا في هـذه الظـروف الـصعبة والدقيقة من تاريخ شعبنا المرابط، لذلك نحن نتوجه إلى الله بالدعاء بأن ييسر لشعبنا الفلسطيني سبل الوحدة والمحبة إنه سميع قريب.

* * *

* *

# الحج أيام زمان ...

بقلم: الأستاذ غفران الناشف – سوريا

قال الله تعالى:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1].

الحج: بفتح الحاء وكسرها لغة: القصد إلى معظّم، وشرعا: قصد مكة لأداء عبادة الطواف والسعي والوقوف بعرفة وسائر المناسك استجابة لأمر الله تعالى وابتغاء مرضاته، وهو أحد أركان الإسلام الخمسة.

وسنتحدث في هذه المقالة عن الحج أيام زمان ولن نبتعد تاريخا أكثر من أربعة قرون، حيث كانت الصعاب والمشاق التي يتكبدها الحجيج أيام العهد العثماني في ذهابهم وإيابهم إلى الأرض المقدسة لأداء فريضة الحج كل عام، فكان يستغرق سفر الحجيج الشامي الذي هو موضوع بحثنا أربعين يومًا إلى المدينة المنورة وعشرة أيام من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، خمسون يوما يقضيها الحاج بين دمشق والمدينة المنورة فمكة المكرمة، وعشرون يوما على الأقل يمضيها في القيام بمناسك الحج وزيارة مسجد الرسول ﷺ ويقضي خمسين يوما في عودته سالما إلى أهله، فهذه أربعة أشهر كاملة للحج الشامي. أما الزمن الذي استغرقته القافلة للوصل إلى مكة المكرمة من دمشق فكانت حوالي (٤٩٠ ساعة) وقدرها أحد الحجاج عند العودة (٤٥٠) ساعة وهذا يعني أن القافلة كانت تسير بين ١٣-١٤ ساعة في اليوم.

أما الحج التركي والإيراني وغيرهما من البلاد الإسلامية، فقد كان يحول الحول على أحدهم دون الوصول إلى بغيته، ناهيك عما يعترض الحاج من مشاق الأسفار وأهوالها وما يضطر لصرفه من النفقات الباهظة في هذا السبيل، لذلك كان الكثير من الأغنياء يتقاعسون عن أداء هذه الفريضة لعدم توفر الوسائط اللازمة لراحتهم، فكان لا بد من الخط الحديدي إلى الديار المقدسة، وقد كان ذلك في عام ١٩٠٨م، واستغرقت الرحلة بالقطار من دمشق إلى المدينة المنورة زهاء (٥٥ ساعة).

**توديع الحجاج:**

تعتبر مواسم الاحتفال بتوديع واستقبال قافلة الحج الشامي أطول المراسم الدينية والمدنية وأكثرها روعة، باعتبار أن عدد المشاركين فيها كبير يتجاوز نصف سكان دمشق.

**أ. موكب الشموع والزيوت:**

يكون بالسابع من شوال من كل عام، وهو احتفال خاص بهذا الموكب الذي سترسل فيه الشموع والزيوت من دمشق إلى الحرم النبوي الشريف مع قافلة الحج، حيث يُحضر الزيت من قرية

كفر سوسية[٢] في ظروف مزخرفة تحملها جمال مزينة ويسير في مقدمتها بيرق أخضر بشراشيب حمراء داكنة وتتقدم الجمال جوقة موسيقية مكونة من أربعين رجلا يشاركهم عدد من أهالي كفر سوسية بألعابهم (السيف والترس – العصي) حيث يصل الموكب إلى باب السريجة حيث مقام الصحابي زيد بن ثابت رضي الله عنه ثم يتجه إلى (سوق باب الجابية فسوق الدرويشية فباب السرايا)[٣] فمركز الكلارخانة[٤] في منطقة السنجقدار حيث يوضع الزيت والشمع إلى جانب لوازم الحج الأخرى.

**ب. موكب المحمل والسنجق:**

وذلك اليوم الثامن من شوال، جرت العادة أن يوضع المحمل على جمل مخصص كما يرفع السنجق على سارية خاصة بعد إخراجهما معا من الكلارخانة بالقرب من جامع السنجقدار، ويتقدم جمل المحمل على السنجق وعادة يكونان مزينين بالزينة المصنوعة من خيوط الذهب الخالص، ويتقدم هذا الموكب مجموعة من مؤذني الجامع الأموي وبأيديهم المباخر، ولهذا الموكب احتفالات خاصة كما تطلق المدفعية ابتهاجا بهذه المناسبة، ويتحرك الموكب من (السنجقدار إلى السنانية، فمرقص السودان[٥] فطريق الشاغور – فباب كيسان – باب شرقي – مقام سيدنا بلال رضي الله عنه – برج الروس – السادات – العمارة)[٦]، ثم ينعطف إلى السرايا وأمام بابها الكبير تقدم الضيافات من سائر الأصناف ويوضع السنجق في السرايا وعندها ينفض الموكب بعد تجوال في المدينة بموكب جميل.

ونلفت الانتباه بأن السلطات العثمانية في ذلك الزمان كانت تصر على هذه الاحتفالات وتبالغ فيها، ولتعطي منصب السلطان صفة دينية، حيث كان يلقب بحامي الحرمين الشريفين، ولتشد الأهالي والعامة إلى السلطان العثماني.

**المحمل:**

هيكل مغطى بقماش أخضر مخملي، كتب عليه بالقصب آيات من القرآن الكريم، يحمله جمل مزين بأقمشة مزركشة وجلود جميلة خيطت على أصداف ومرايا صغيرة، يرافق المحمل أمير الحج من دمشق إلى الحجاز اعتبره السلطان العثماني شعارا ورمزا لسيادته على الحرمين الشريفين.

**السنجق:**

كان يحمل على جمل ويمسك بهذا الجمل موظف خاص ويلبس لباسا خاصا مزركشا. وكان الدمشقيون يحترمون هذين الجملين ويتمسحون بهما تبركا، ويخرج موكبهما من دمشق إلى الحج في السادس عشر من شوال بعد صلاة الظهر من جامع السنجقدار ويحمل مع السنجق غلافه المرسل من إستانبول للحفاظ عليه وصيانته.

**ج. موكب قافلة الحج:**

ويكون في ١٥-١٧ شوال وتضم القافلة حجاجا من جنسيات وقوميات مختلفة (العرب والفرس والأكراد والتركمان والهنود والأوزبك والجرجان والشركس والألبان والبشناق والأفغان والأتراك وبعض أبناء جنوب شرق آسيا) الذين يأتون برا، وتعتبر قافلة الحج الشامي إحدى

القـافلتين الرئيـستين في الدولـة العثمانيـة إلى جانـب قافلة الحج المصري.

يجتمـع الحجـيج في دمـشق في شـهر رمـضان، ويقيمـون في منطقـة المـرج (قـرب التكيـة السـليمانية) والـبعض ينـزل في خـان الحـرمين (في بـاب البريـد – قرب الجامع الأموي) أو بـالقرب من جامع الـورد (سوق ساروجة)، أما الحجاج العجم فعادة ينزلون في حـي الخـراب أو الـسويقة. يـصعب سـير هـذا الموكب بدون نظام وانتظام، لذلك يكون تحت إدارة حاكم يلقب بـ(أمير الحج)، وكانت القافلة تتألف مـن مـشاة وفرسـان وهجانـة وحمـارة يقـدر عـددها بعشرة آلاف نسمة وعشرين ألـف دابة على الأقل. لـذلك كانـت طاعـة أمـير الحـج واجبـة عـلى الحجـاج ليسهل عليهم قطع هذه الطريق المملوءة بالأخطار والمـصاعب دون فقـدان أحـد أو ضـياع أو تـشرد، فكـان لابـد من الهدايا التي يرسلها السلطان لقبائل البدو والعطايا التي يحن بها على شيوخهم، وهـذه الهـدايا والعطايـا كانـت تحمـل مـع موظـف يـسمى (الصرة أميني) أو أمير الصرة. الذي يغادر إستانبول كل سنة في منتصف رجب وسط احتفالات شعبية ورسمية يرافقه عدد من الحجاج الأتراك للاستفادة من الحماية المؤمنة له، ويصل دمشق عادة في العشر الأولى من رمضان.

وتـدرج الـولاة وتعـاقبوا عـلى مهمـة أمـير الحـج حتـى اسـتلمها آل العظـم الـذين عملـوا عـلى تـأمين الطريـق والمحافظـة عـلى سـلامة القافلـة، ممـا أرضى السلطان والرأي العام الديني فأدى ذلك إلى إطالة فـترة حكمهـم عـلى دمـشق حـوالي سـتين عامـا بـشكل منقطـع في القـرن الثـامن عـشر ومطلـع القـرن التاسـع عشر، وبعدها تسلم إمارة الحج أغوات من الأكراد الدمشقيين من أسر: (أجليقين – بوظو – شمدين – اليوسـف)، بالإضـافة إلى أمـير الحـج كانـت مهـام ومناصـب في القافلـة أمـير الجـردة: (باشـا جـردة) = أمـير الملاقـاة، ومهمتـه الخـروج لملاقـاة القافلـة في طريق عودتها وتزويدها بالمؤن التي تنقصها، حيث يغـادر دمـشق في شـهر ذي القعـدة أو ذي الحجـة ولا بـد مـن التـسليح حتـى لا تتعـرض القافلـة لاعتـداء البدو. أما بالنسبة للمصادر المالية التي تمول القافلة فهناك مصدران:

١ – قـسم كبـير مـن الـضرائب أو مـا يـسمى (مـال الميري) وهي الرسوم التي تفرضها الدولة على التجارة والـصناعة في الولايـات ويـسمى المـال المخـصص لهـذه الغاية (مال الحج) الذي يستفاد منه للجردة.

٢ – مـال البـدل: يدفعـه أصـحاب الإقطاعـات مـن الجنـود الـسباهية[٧] لقـاء إعفـائهم مـن الخدمـة العسكرية وتصرف هذه الأموال لاحتياجات القافلة منها على سبيل المثال:

١ – اسـتئجار قـوى عـسكرية غـير نظاميـة للمشاركة في حماية القافلة.

٢ – تـوفير المـؤن أو وسـائط النقـل للقـائمين بشؤون الحج.

٣ – أعطيات البدو (الصرّة) لشراء حماية القافلة.

**سفر القافلة:**

ترحل قافلة الحج الشامي من مدينة دمشق في

موكب مهيب وحافل وفق ما يلي: يرحل أولا أمير الحج في ركب مؤلف من جيش صغير مجهز بالأسلحة الكاملة والمدافع الصغيرة بين ١٢-٢٠ من شوال ويحمل معه المحمل والسنجق والزيت والشموع، ويتوقف الركب عند قبة الحج خارج (بوابة الله[٨] وسميت بذلك لأنها تؤدي إلى بلاد الله في الحجاز والقدس) في منطقة الميدان، ثم إلى (جامع العسالي)، حيث تجري المراسم العسكرية والاحتفالات تكريما لهذا الموكب وبانتظار تجمع الحجاج الذين يتبعونهم زرافات ووحدانا، حيث يسير الموظفون وأصحاب الرتب العليا بألبستهم الرسمية أمام المحمل الشريف تحيط بهم صفوف الجند وهجانة البدو حتى نهاية طريق الميدان وتطلق المدفعية ابتهاجا حتى وصول الموكب إلى بلدة القدم[٩].

بعد ذلك يسير الركب من القدم إلى قرية الكسوة[١٠]، ثم يسير إلى المزيريب التي تبعد عن دمشق حوالي ١٠٣ كم جنوبا فيبقى الركب فيها أربعة أو خمسة أيام حتى يلتئم عقد الحجاج، كل ذلك دون خوف من الأخطار، فتتم الاستعدادات النهائية فيتم توديع الحجاج من قبل مرافقيهم ويسمون (المزيرباتية) ويعود الباعة والمرافقون إلى دمشق ويودع بعض الحجاج ودائعهم في قلعة المزيريب ويرافقهم عادة قاض يدعى (قاضي الركب الشامي) ويكون موكب القافلة على الترتيب التالي:

أمير الحج على رأس الركب مع قسم من الجيش في المقدمة وقسم آخر يحفظ جناحي الركب، وفي كل صباح ومساء تطلق المدفعية ثلاث طلقات إعلانا بوقت المسير والوقوف وكثيرا ما يبلغ طول هذا الركب، وفي كل صباح ومساء تطلق المدفعية ثلاث طلقات إعلانا بوقت المسير والوقوف وكثيرا ما يبلغ طول هذا الركب ثلاثة أو أربعة كيلومترات. أما الطريق الذي يسلكه الركب فهو عبارة عن عدة طرق حفرتها أقدام الإبل والدواب طوال السنين وتقدر المسافة بين دمشق ومكة المكرمة بأربع مئة وتسعين ساعة وبأربعين مرحلة منها تسعون ساعة من المزيريب إلى معان والطريق المألوف من المزيريب إلى المفرق، ثم عين الزرقاء فالبلقان، ثم القطرانة فالحسا، وهنا تشتد صعوبة الطريق ويدب الرعب والخوف في قلوب الحجاج لكثرة المضائق التي تغص باللصوص وقطاع الطرق ولقلة مصادر مياه الشرب. وكثيرا ما كانت السيول تجرف الركب بأجمعه فلا ينجو منه إلا الحجاج فقط، فإذا بلغ الركب مدينة معان يستريح قليلا ويتابع السير فتقطع العقبات المؤدية إلى صحراء النفوذ (ظهر العقبة أو عقبة الحلاوة)، جغيمان (المدورة)، ذات الحج القاع، تبوك، مغائر شعيب، الأخضر المعظم، دار الحمراء، وفي هذه الأماكن لا يشاهد سوى رمال صحراء النفوذ حتى مدائن صالح (ديار أو آبار ثمود)، وبعد الخلاص من هذه الطرق يوزع أمير الحج على الحجاج المياه للشرب مجانا، ويستأجر مئات من الجمال لتقوم بهذا العمل الخيري، وكل هذه التطمينات لا تجدي نفعا مع الحجاج فلطالما حدثت اختلافات بين أمير الحج والبدو، فتقع المصيبة على رأس الحجاج والركب معا فيبقى

الرعـب يمـلأ قلـوب الحجـاج حتـى الوصـول إلى مدائن صالح التي تعتبر أقل خطورة وتحوي الكثير من الآثار النبطية القديمة.

ومـن مـدائن صـالح يـسير الركـب إلى المدينـة المنورة وبعدها إلى مكة المكرمة، وإذا ما أراد البدو الإضرار بقافلة الحج دون الهجوم عليها، لجؤوا إلى وضـع الحـشائش الـسامة مثـل الحنظـل أو بقايـا الحيوانـات المتفـسخة في بـرك المـاء أو في بعـض المنـازل، لـذلك اهتمـت الدولـة العثمانيـة منـذ بـدء حكمها في بلاد الشام ببناء القلاع في منازل الحجاج وترميمهـا وتعزيزهـا بالحاميـات العـسكرية لحمايـة قوافل الحجاج والتجارة.

وإجمالا فإن أكثر الأراضي الحجازية مؤلفة من جبال وأودية وقليل من الواحات، فالطريق صعبة وفيهـا آبـار متقطعـة في حـين أن هنـاك طريقًـا آخـر مأمونًـا يقـال لـه الـدرب الـسلطاني وهـو الـدرب الأقـصر طـولا ولكنـه الأشـد خطـورة، فالحجـاج يعرضون عنه حينما تبلغهم ثورة البدو على الحكومة، وتفضله قوافل الحجاج لمكانته الرسمية والتاريخية ولـسهولة المواصلات عليه. ويكسب هـذا الطريـق أهمية حيوية باعتباره مليء بآبار المياه لـذلك مدت الخطـوط الحديديـة عنـد إنـشاء الخـط الحجـازي بـين المدينتين المقدستين على طول وقرب هذا الطريق.

**استقبال قافلة الحج:**

كـان الاسـتقبال كـالتوديع مرهونـا بـالظروف الأمنية والسياسية والاقتصادية التي أحاطت ببلاد الـشام والحجـاز في هـذه الفـترة ويكـون الاسـتقبال حسب الترتيب التالي:

١- يـدخل الجوقـدار[١١]: مـا بـين الرابـع والعـشرين والـسابع والعـشرين مـن شـهر المحـرم دمشق ويكون مرسلا من قبل أمير الحج من مدينة معان ليبلغ بسلامة الركب.

٢- بعـد أسـبوع مـن وصـول الجوقـدار يـصل كتّـاب الحـج حـاملين رسـائل الحجـاج إلى ذويهـم، وتـوزع الرسـائل في منطقـة الدرويـشية ويرسـل مـن منزلـة القطرانـة (قبـل البلقـاء)[١٢] ويحمـل كتّـاب آخـرون الرسـائل إلى حمـاه وحلـب، أمـا الحجـاج الأتـراك فإنهم يرسلون المكاتيب إلى إستانبول بعد وصول الركب إلى منزل (ظهر العقبة)[١٣].

٣- بعد أسبوع من وصول الكتّاب إلى دمشق تـصل طلائـع الحجـاج في النـصف الأول مـن شـهر صفر ويستبقون بذلك وصول المحمل الشريف، ثم أمير الحج بحوالي أسبوع وهي المدة نفسها تقريبا من خـروج المحمـل مـن دمـشق إلى قبـة الحـج ويخـرج الناس لملاقاة ذويهم الحجاج من (خان دنون)[١٤] والـبعض الآخـر أبعـد مـن ذلـك، ثـم يرافقـونهم إلى دمشق، حيث تكـون الطرقـات غاصـة بالنـاس عـلى امتـداد أميـال، والجميـع ينظـرون إلى الحجـاج نظـرة الاحترام والتبجيل لما عانوا وتجشموا من المصاعب والمخاطر في طريقهم لأداء مناسك الحج.

٤- يتوقـف أمـير الحـج في قبـة الحـج، حيـث يستقبله أعيان دمشق، ويدخل العساكر والانكشارية مع ضباطهم ويعقبهم السنجق الشريف مع عدد من الأهالي إلى القلعة ومن ورائهم أمير الحج، كل ذلك

والموكـب يـسير دون جلبـة أو ضوضـاء والدماشـقة واقفون للفرجة ساعات طويلة.

٥- يتـابع الحجـاج الغربـاء مـسيرهم باتجـاه أوطانهم، والبعض الآخر يبقى في دمشق لعدة أيام، ثـم يتـابع طريقـه باتجـاه الـوطن، ويـستعد الحجـاج الدماشقة لاستقبال المهنئين من الأقرباء والأصدقاء ويتبادلون الهدايا، كل حسب مقدرته المادية.

لا مقارنـة بـين مـا كـان يعانيـه الحـاج في الأيـام الخوالي من مصاعب الطرقات وأخطار غزو البدو ناهيك عن ظروف الطقس وتقلبات الجو بالإضافة إلى انعدام وسائل الراحة في السفر والأكل والشرب وبـين مـا يجـده الحـاج في هـذه الأيـام مـن سـهولة المواصلات البرية والجوية، بالإضافة إلى توفر الأمن والأمان في كل مكان، وأينما رحل وارتحل يجد اليسر والراحة حتى في أداء مناسك الحج. فهنئيا لمن كان حجه في هـذا العـام والأعـوام الماضـية، ونـدعو الله سبحانه وتعالى أن يدعونا لأداء فريضة الحج لنردد طـائعين (لبيـك اللّهم لبيـك، لبيـك لا شريـك لـك لبيك)، ونعود سالمين غانمين إن شاء الله.

**مخطط سير ركب قافلة الحجيج:**

دمشق، قبة الحج، بوابة الله، القدم، الكسوة، خان دنون، المزيريب، المفرق، الزرقاء، البلغاء، القطراني، الحسا، عنيزة، معان، ظهر العقبة، جغيمان، ذات الحج، تبوك، المغاير، الأخيضر المعظم، الدار الحمراء، مدائن صالح، بير صالح، أشعال المقام، هدية، فحلنين، وادي القرى، العقيق، المدينة المنورة، أبيار علي، الهدا، الحديدة، بدر رابغ، قديد، خليص، قاع البزوة، عسفان وادي فاطمة، مكة المكرمة.

* * *

**الهوامش:**

(١) الآية (٢٧) من سورة الحج.
(٢) أسواق في دمشق القديمة.
(٣) أسواق دمشق القديمة.
(٤) الكلارخانة: المخزن أو المستودع وهي غرفة صغيرة في جامع السنجقدار.
(٥) مرقص السودان: حي شارع البدوي بين الشاغور وباب الجابية.
(٦) أجياء في دمشق القديمة.
(٧) السباهية: الفرسان الإقطاعيون الذين يمنحون إقطاعات من أراضي الدولة مقابل خدمتهم في الجيش.
(٨) بوابة الله أو قبة الحج خارج حي الميدان على مقربة من القدم.
(٩) القـدم: قريـة جنـوب دمـشق تبعـد حـوالي ٥كـم وسـميت بهـذا الاسم لوجود أثر قدم يقال إنها قدم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
(١٠) الكسوة: قرية جنوب دمشق تبعد عنها حوالي (١٨كم) على الجانب الأيسر لنهر الأعوج.
(١١) الجوقدار: مرسل عن أمير الحج (نائبه).
(١٢) منزلـة القطرانـة: منـزل للمـسافرين والحجـاج قريبـة مـن مدينـة الكرك الأردنية.
(١٣) ظهر العقبة: نزل للمسافرين والحجاج قرية من مدينة العقبة الأردنية.
(١٤) خان دنون: عبارة عن خرائب قديما، قرية بعد الكسوة على نهر الأعوج.

* * *

**مصادر المقالة:**

١- حوادث الشام ولبنان (مجهول).
٢- تاريخ حوادث الشام ولنبان (تحقيق سبانو).
٣- البديري الحلاق (حوادث الشام اليومية).
٤- المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية (ابن كنان).
٥- الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية (محمد عز الدين عربي كاتبي).
٦- قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني (بحث الدكتور عبد الكريم رافق).
٧- رحلة سويله مزأوغلي إلى بلاد الشام (تحقيق فاضل مهدي بيات).

# مواقف خالدة بين العلماء والخلفاء

بقلم: الأستاذ إحسان النمر

دروس من الماضي يحتاج إليها العلماء في كل عصر وقطر. وقد ترك لنا هذه الدروس علماء أعلام، وذلك بمواقفهم الصريحة الجريئة أمام الخلفاء، والسلاطين الأقوياء، ينصرون أمامهم كلمة الحق، ويبذلون لهم واجب النصح، في أدب من القول، وعفة عن متاع الحياة.

وأمثلة ذلك في التاريخ الإسلامي كثيرة ولكني أقتصر منها على الأمثلة الآتية:

**عمر بن عبد العزيز ومحمد بن كعب:**

جاء في كتاب المنهج المسلوك في سياسة الملوك للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله من علماء القرن السادس: «حكى مالك بن أنس رضي الله عنه أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما وُلي الخلافة دخل عليه محمد بن كعب وعنده هشام بن معاذ وقد وعظه فأبكاه فقال له محمد: ما أبكاك يا أمير المؤمنين فقال: أبكاني هشام حين ذكرني وقوفي بين يدي ربي. فقال له محمد: يا أمير المؤمنين إنما الدنيا سوق من الأسواق منها خرج الناس بما نفعهم، ومنها خرجوا بما ضرهم، فلا تكن من قوم قد غرهم منهامثل الذي أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم منها فخرجوا منها ملومين، لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عدة، ولما كرهوا جنة، فاقتسم فيما جمعوا من لا يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم، فانظر يا أمير المؤمنين إلى تلك الأعمال التي تتخوف منها فكف عنها، وانظر إلى الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك فاصنع منه. وابذل حيث يحمد البذل، ولا تذهب إلى سلعة قد بارت على من كان قبلك، ترجو أن تروج معك. فاتق الله تعالى يا أمير المؤمنين وافتح الباب وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، واردع الظالم. يا أمير المؤمنين ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان، من إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، ومن إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له قال: فاشتد بكاء عمر بن عبد العزيز وعلا نحيبه».

**سليمان بن عبد الملك وأبو حازم:**

وجاء في كتاب المنهج المسلوك أيضا. «حكي أن سليمان بن عبد الملك لما قدم المدينة أقام بها ثلاثا فقال: ما هاهنا رجل أدرك الصحابة يحدثنا؟ فقيل له إن هاهنا رجلا عابدا من التابعين اسمه أبو حازم أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونقل عنهم الأحاديث فبعث إليه فلما جاءه واستقر به المجلس، قال له سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال لأنكم أخربتم آخرتكم، وعمر تم دنياكم، فأنتم تكرهون النقلة

من العمران إلى الخراب.

قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الله تعالى؟

فقال: أما المحسن فكغائب يقدم على أهله، وأما المسئ فكالعبد الآبق يقدم على مولاه.

قال: فبكى سليمان، وقال: ليت شعري ما لنا عند الله يا أبا حازم؟

فقال: اعرض نفسك على كتاب الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾.

قال سليمان: يا أبا حازم. أين رحمة الله؟

قال: قريب من المحسنين.

قال: فبكى سليمان، ثم أطرق ساعة، ثم رفع رأسه إليه وقال: يا أبا حازم، من أعقل الناس؟ قال: من تعلم الحكمة وعلمها للناس.

قال: من أحمق الناس؟ قال: من دخل في هوى رجل ظالم فباع آخرته بدنيا غيره.

قال: فما تقول فيما نحن فيه؟ قال: اعفني من ذلك، فقال: إنما هي نصيحة بلغتها. فقال إن ناسا أخذوا هذا الأمر من غير مشورة من المسلمين، ولا إجماع من رأيهم فسفكوا الدماء على طلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنها. فليت شعري ما قالوا، وما قيل لهم؟

فقال رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا شيخ. فقال أبو حازم: كذبت والله يا جليس السوء. إن الله تعالى أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

فقال سليمان: يا أبا حازم كيف لنا على العلاج؟ قال: تدع التكلف وتتمسك بالحقيقة.

قال: فكيف طريق المأخذ لذلك؟ قال. تأخذ المال من حله، وتضعه في أهله.

قال: ومن يقدر على ذلك؟ قال: من قلده الله تعالى من الأرض ما قلدك.

قال: أفترى يا أبا حازم أن تصيب منا ونصيب منك؟ قال: أعوذ بالله من ذلك. قال ولم؟ قال أخاف أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذيقني ضعف الحياة وضعف الممات.

قال: يا أبا حازم فدلني على ما أصنع قال: اتق الله تعالى أن يراك حيث نهاك. ويفقدك حيث أمرك.

قال: ادع لي يا أبا حازم؟ قال: اللّٰهم إن كان سليمان وليك فيسره لخيرَيِ الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى فعل الخير، وأصلحه في الدنيا والآخرة.

فقال: يا غلام أعط أبا حازم مئة دينار ليقضي بها دينه. فقال: لا حاجة لي بها، إني أخاف أن تكون عوضا عن كلامي فيكون أكل الميتة أحب إلي من أخذها.

ثم نهض فخرج من عنده فلما كان من الغد بعث إليه فأحضره، فلما دخل عليه قال: يا أبا حازم عظنا عظة ننتفع بها، فقال: إن هذا الأمر لم يحصل إليك إلا بموت من كان قبلك، وهو خارج عن يدك مثل ما صار إليك، فبكى سليمان، وكاد يسقط عن جنبه. فلما أفاق، قال: ارفع إلى حوائجك يا أبا حازم. قال هيهات أني قد رفعتها إلى من لا تحجب

دونه الحوائج، فما أعطاني منها قنعت، وما منعني منها رضيت وذلك أني نظرت إلى هذا الحال وهذا الأمر فإذا هو على قسمين أحدهما لي والآخر لغيري أما ما كان لي فلو احتلت فيه بكل حيلة ما وصلت إليه قبل أوانه الذي قدر لي فيه، وأما الذي لغيري فذاك لا طمع فيه، وكما منع غيري من رزقي كذلك منعني أنا رزق غيري. وانصرف فما برح سليمان بعد ذلك مستضعفا حتى مات.

**المنصور والأوزاعي:**

ومن كتاب المنهج المسلوك أيضًا حكى أبو القاسم عبد العزيز بن حسن بإسناده أن أمير المؤمنين المنصور بعث إلى الأوزاعي وهو بالساحل فأحضر عنده فلما استقر به المجلس قال له المنصور: ما الذي أبطا بك عنا يا أوزاعي؟ قال وما الذي تريد مني يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنك والاقتباس منك. قال يا أمير المؤمنين: إنك لا تجهل شيئا مما أقول، قال وكيف لا أجهله وأنا أسأل عنه، قال يا أمير المؤمنين: إنك تسمعه ولا تعمل به قال فصاح به الربيع وأهوى بيده إلى السيف فانتهره المنصور وقال هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة قال فصاح الأوزاعي رحمه الله تعالى: يا أمير المؤمنين حدثنا مكحول ابن عطية قال: قال رسول الله ﷺ: «أي عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله تعالى سيقت إليه فإن قبلها شكره وإلا كانت حجة من الله عليه يزداد بها إثما ويزداد بها عليه سخطا».

وقد بلغني أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أيما وال بات غاشًّا لرعيته حرم الله عليه الجنة، يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله تعالى، لأن الله هو الحق المبين. يا أمير المؤمنين إن الذي لين لك قلوب الأمة، حتى ولاك أمورهم، لقرابتك من نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحقيق أن تقوم له فيهم بالحق، وأن تكون فيهم بالقسط قائما، ولعوراتهم ساترا، فلا تغلق عليهم وعليك الباب، ولا تقم عليك دونهم الحجاب وابتهج بالنعمة عندهم، وتأذ لما أصابهم من مكروه. يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى، وإن من طلب العزة بطاعة الله رفعه الله وأعزه، ومن طلبها بمعصية الله وضعه الله تعالى وأذله، وهذه نصيحتي إليك والسلام عليك ورحمة الله.

قال فلما سكن عن المنصور البكاء رفع رأسه إليه وقال: يا أوزاعي قد قلت وأنت غير متهم في نصحك، وقد سمعناه منك، وصادف قبولا إن شاء الله تعالى والله الموفق للخير والمعين عليه. يا ربيع أدِّ للأوزاعي ما يستعين به على زمانه. قال يا أمير المؤمنين: أني غني عن ذلك، وما كنت لأبيع نصيحتي بشيء من عرض الدنيا، ثم ودع المنصور وانصرف إلى حال سبيله.

**الرشيد وابن عياض:**

وروي أيضًا: أن الفضل بن الربيع قال: لما حج الرشيد حججت معه وبينما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب، فخرجت فوجدته الرشيد، فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك. فقال: ويحك إنه قد حاك في صدري شيء، فانظر لي رجلا

أسأله، فقلت: إن ههنا سفيان بن عيينة، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فقرعنا عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت أجب أمير المؤمنين، فقال: لو أرسلت إلي أتيتك، فقلت: خذ لما جئناك به يرحمك الله، فحادثه ساعة، ثم قال: له أعليك دين، قال: نعم يا أمير المؤمنين: قال: يا أبا العباس اقض دينه.

ثم انصرفنا من عنده فقال الرشيد: ما أغناني صاحبك شيئا فانظر لي رجلا أسأله، فقلت له: الفضل بن عياض. فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فسمعناه يقرأ آية في كتاب الله تعالى، وهو يرددها. فقرعت عليه الباب، فأوجز في صلاته، وقال: من هذا؟ قلت أجب أمير المؤمنين. فقال: ما لي ولأمير المؤمنين. قلت: سبحان الله أما عليك طاعته، فنزل وفتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج، ثم انتجأ إلى زاوية، وأخفى نفسه، فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كف الرشيد إليه، فقال: كف ما ألينه إن نجا من عذاب الله تعالى. فقال الرشيد: خذ بما جئناك له يرحمك الله.

فقال يا أمير المؤمنين: إن عمر بن عبد العزيز رحمه الله لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ابن عمر، ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيان، وقال: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي ما أصنع. فعد الخلافة بلاء – وأنت وأصحابك تعدونها نعمة – فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله تعالى فليكن كبير المسلمين لك أبا، وأوسطهم عندك أخا، وصغيرهم ولدا، فوقر أباك، وتحنن على أخيك، وارفق على ولدك.

وقال له رجاء بن حيان: إن أردت النجاة غدا من عذاب الله تعالى فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت متى شئت.

فهل عندك يا أمير المؤمنين مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا الأمر؟ واني لأقول لك هذا، وأخاف عليك أشد الخوف يوم يزل القدم قال فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا حتى غشي عليه فقلت له يرحمك الله ارفق بأمير المؤمنين فقال قتلته أنت وأصحابك وأرفق أنا به، فلما أفاق قال: زدني قال: يا أحسن الوجه أنت الذي يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي وجهك من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك، فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أصبح غاشا لرعيته، لم يرح رائحة الجنة.

قال: فاشتد بكاء هارون الرشيد. فلما أفاق قال: هل عليك دين؟ قال: علي دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن حاسبني، والويل لي إن لم يلهمني حجتي. فقال: إنما أردت دين العباد. قال: لا فإن ربي لم يأمرني بذلك؛ بل أمرني أن أصدق وعده، وأطيع أمره. فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾. فقال هارون الرشيد: هذه ألف دينار خذها وأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك فهي عن وجه حل. فقال: سبحان الله: أنا أدلك على النجاة، وأنت تدعوني إلى النار.

ثم سكت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب سمعنا امرأة من نسائه تقول: يا هذا قد ترى ما نحن فيه من الضائقة وسوء الحال، فلو قبلت منه هذا المال لتقوينا به على زماننا، فقال لها: إنما مثلي ومثلكم كقوم لهم بعير يأكلون من كسبه: فلما كبر وعجز عن الكسب نحروه وأكلوا لحمه.

فلما سمع الرشيد قال: يا فضل ادخل بنا إليه، فلعله يقبل منا هذا المال، فلما دخلنا عليه، وأحس بنا، خرج فجلس على السطح على التراب. فجلس الرشيد إلى جانبه، وجعل يكلمه فلم يجبه، فخرجت جارية وقالت يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة، فانصرف عنه يرحمك الله. فلما خرجنا من عنده قال لي الرشيد: إذا دللتني فدلني على مثل هذا الرجل، فهذا يوم وليلة من أشرق الأيام والليالي. رحمة الله عليهم أجمعين.

وفي سيرة الإمام مالك بن أنس أنه لما حج الرشيد زار المدينة المنورة وأراد أن يسمع الحديث عن الإمام مالك بن أنس، فأرسل يستقدمه، فقال مالك للرسول. «قل لأمير المؤمنين أن طالب العلم يسعى إليه، أما العلم فلا يسعى إلى أحد» فأذعن الخليفة وزار مالكا في داره، ولكنه أمر أن يخلى المجلس من الناس، فأبى مالك إلا أن يظل الناس كما كانوا وقال: إذا منع العلم عن العامة فلا خير فيه للخاصة.

وقد ورد في العقد الفريد للملك السعيد مواقف مشرفة جدا للقضاة في العهد العباسي، فكان القاضي منهم إذا لم يذعن له خليفة أو أمير، فإنه يختم قمطره (ملفاته) ويلزم بيته، إلى أن يذعن ذلك الأمير أو الخليفة، فيحضر مجلس القضاء، ويرضى بالحكم وينفذه، مما يدل على عزة نفوس القضاة وجرأتهم.

وقد يقول قائل إن خلفاء الإسلام والأمراء كانوا يعظمون علماء الدين، وهذا ما كان يطمع العلماء بالجرأة عليهم، إلا أن الأمر لم يقتصر على الخلفاء فقد وقفوا مواقف جريئة من هولاكو والقازان وتيمورلنك كان فيها القضاء على حياتهم.

**تيمورلنك والراميني:**

وقد كان من أبرزها وأظهرها حكاية الراميني مع تيمورلنك، فقد ورد في شرح منظومة الآداب للشيخ محمد السفاريني، أن تيمورلنك حينما دخل دمشق صار يحرج العلماء بالأسئلة، فطلب منهم الإفتاء بأن يفتوا بأن فضيلة النسب مقدمة على فضيلة العلم بلا ارتياب، فتقاعسوا وأحجموا، فابتدر بالجواب الإمام شمس الدين بن مفلح الراميني فقال: «درجة العلم أعلى من درجة النسب، ومرتبتها عند الخالق والمخلوق أعلى الرتب، والهجين الفاضل، يقدم على الهجين الجاهل، ثم أخذ القاضي شمس الدين في نزع ثيابه مصححا لتيمورلنك ما يصدر من جوابه ففكك أزراره، وقال لنفسه إنما أنت إعارة، وكأس الموت لابد من شربها، فسواء ما بين بعدها وقربها، والموت على الشهادة من أفضل العبادة، وأفضل أحوالها لمن علم أنه إلى الله صائر كلمة حق عند سلطان جائر.

فقال له تيمورلنك: ما حملك على نزع ثيابك، فقال له الشيخ: بذلا لنفسي في سبيل الله، صابرا

لعقابك، فقال له: قد وسعك حلمنا فلا نعدم سلمنا. فقال له: أيها السلطان الجليل. حيث مننت بالحلم فليكن الأمان مصحوبا بالتفضيل من صولة بعض العسكر.

**علماء الأزهر:**

وفي عهد المماليك أظهر علماء الأزهر الأعاجيب، فقد كانوا يؤلبون العامة على سلاطين المماليك، ويفتون بعدم طاعتهم، إذا كان السلطان ما يزال مملوكا لم يعتق، وعبثا كانوا يحاولون إرهابهم بالقوة أو بالإغراء بالمال. وقد وردت أمثال ذلك في تواريخ عهد المماليك المفصلة. من أهمها وأبرزها مواقف الإمام ابن تيمية.

**عز الدين بن عبد السلام:**

ومن مآثر شيوخ الأزهر في القديم الاعتداد بأنفسهم وبدينهم كما حدث للشيخ عز الدين بن عبد السلام مع بعض أمراء الدولة الذين كانوا أرقاء للسلاطين، يتولون الحكم باسمهم. فقد تولى الشيخ القضاء وحكم على بعض هؤلاء الأمراء ببيعهم.. لأنه لم يثبت عنده أنهم أحرار، وما داموا أرقاء فيجب أن يباعوا، ويضاف المال الذي يباعون به إلى بيت مال المسلمين.. ولما سمع هؤلاء الأمراء بذلك عظم الخطب عندهم.. وكان من بينهم نائب السلطنة فاستشاط غضبا، واجتمع بهؤلاء الأمراء، واستقر رأيهم على أن يرفعوا الأمر إلى السلطان. ثم أرسل نائب السلطنة إلى الشيخ عز الدين يسترضيه ويلاطفه، فلم ينثنِ الشيخ عن رأيه. وهنا ثار النائب وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ليبيعنا ونحن ملوك الأرض، والله لأضربنه بسيفي هذا. وقام النائب بنفسه في جماعة من رجاله، وقصد إلى بيت الشيخ، والسيف مسلول في يده، فطرق الباب، ففتح له بعض أولاد الشيخ، ثم عادوا يخبرون والدهم بالأمر، فما اكترث الشيخ، بل خرج لمقابلة النائب الذي بهت حين رأى الشيخ يخرج إليه هادئا ثابتا لا يحمل سلاحا، واعترت النائب رعشة مفاجئة، فيبست يده وسقط منها السيف.

**الشيخ السنباطي:**

وشبيه بهذا الموقف ما بلغنا عن الشيخ شهاب الدين أحمد عبد الحق السنباطي، فإنه تصدى لداود باشا وكان إذ ذاك واليا على مصر، وصرخ في وجهه قائلا: إنك رقيق لا يجوز أن تتولى الأحكام، وإن أحكامك باطلة ما لم تحصل على عتقك من السلطان، فهم الوالي بضرب الشيخ بالسيف، فانحاز الجند المحيطون به إلى جانب الشيخ، وخذلوا السلطان، فرفع داود باشا أمر هذه الواقعة إلى السلطان، فأنعم عليه بالعتق، وأرسل للشيخ يبلغه التحية والشكر. ثم حاول أن يقدم إليه هدية، فرفض الشيخ أن يقبل منه مالا أو هدايا، ومن يومها أصبح الوالي لا يرفض للشيخ رأيا ولا يرد له شفاعة.

**الشيخ آلباجوري والشربيني:**

ولعل من أعظم الدلائل على تعظيم شيوخ الأزهر أن المغفور له عباس باشا الأول كان يزور حلقة درس الشيخ إبراهيم الباجوري – شيخ الأزهر إذ ذاك – فلا يقوم الشيخ له. ثم يختار عباس

باشا مقعدا من الجريد يجلس عليه بجوار حلقة الدرس، وكان الشيخ الشربيني شيخا للأزهر في أوائل هذا القرن، وكان ورعا تقيا عالما فحلا، لقب في زمانه بإمام الشافعية، لم يقبل المشيخة إلا بعد رجاء شديد من أولي الأمر. ومما أثر عنه أنه دعي يوما لتناول طعام الإفطار في قصر المغفور له الخديو عباس، فتأبى كثيرا عن إجابة هذه الدعوة، ثم قبلها آخر الأمر، مشترطا أن يكون تناوله الطعام على وضع خاص، ولما دنا الموعد، ركب الشيخ بغلته، وذهب إلى قصر عابدين، ثم جلس مع فريق من المدعوين، وحين بدؤوا يتناولون الطعام، نشر الشيخ منديلا كان معه على المائدة وبه طعامه الذي استحضره معه من منزله، ووضع بجانبه قلة ماء، فأكل وشرب، ثم خرج مودعا أطيب توديع من رجال القصر، ومن ولي الأمر.

**الشيخ حسن الطويل:**

ومنهم أيضًا ذلك الرجل العظيم الشيخ حسن الطويل.. كان رحمه الله يدرس بعض دروس الفلسفة والدين بمدرسة دارالعلوم وكانت المدرسة إذ ذاك تستعد لزيارة الخديو، فأشار ناظر المدرسة المغفور له إبراهيم مصطفى بك على الأستاذ أن يتزيا بلباس يليق بسمو ولي الأمر. فأخذ الشيخ معه جبة وقفطانا في صرة، وذهب بهما في اليوم المعين إلى المدرسة دون أن يلبسهما. ومر الخديو على غرفة الأستاذ فاستمع إليه، وسر من بيانه، وغزارة علمه، ولكنه لاحظ خجلا باديا على ناظر المدرسة، كما لاحظ وجود الصرة بجانب الشيخ. فلما سأل عن ذلك، قال الشيخ قولته التي أثرت عنه: إن كنتم تعظمون حسن الطويل، فها هو ذا، وإن كنتم تعظمون ثيابه فها هي ذي، ونشر الشيخ ثيابا حديدة.

**الشيخ أبو الفضل وثورة ١٩١٩م:**

ولعل القصة التالية تبين مبلغ شجاعة شيوخ الأزهر وحرصهم على إعزاز الدين الإسلامي. كان الأزهر في عام ١٩١٩ مهد الثورة المصرية، وفي تلك الأيام أراد القائد ولسون قائد القوات الإنجليزية الاتصال بشيخ الأزهر في ذلك العهد وهو الشيخ أبوالفضل. فقصد إليه الشيخ ومعه مدير الأزهر الشيخ عبد الرحمن قراعة والشيخ شاكر من كبار العلماء، وتكلم قائد السلطة فوجه إلى الشيخ أبي الفضل كلاما ينطوي على تهديد قائلا: «إن الأزهر أصبح مبعث قلق لنا، لأن الثائرين يلوذون به، وذلك لا يمكننا من القبض على ناصية الأمر، ولذا فنحن نرى غلقه»، فاهتاج الشيخ غاضبا ثم قال له. «إن الأزهر ليس لمصر وحدها، بل لجميع المسلمين عامة». ثم لوح للقائد بيده بعنف، وقال للقائد «أغلقوه أنتم إن استطعتم ولن تستطيعوا». وجمع الشيخ ثيابه بيديه، وخرج غاضبا والقائد ورجاله ينظرون إليه مندهشين مبهورين، دون أن يستطيعوا كلاما.

هؤلاء هم شيوخنا القدماء الذين صدق فيهم قول الشاعر:

إن الأكابر يحكمون على الورى
وعلى الأكابر تحكم العلماء

# ١ – كتاب «مسيرة دارالعلوم ديوبند عبر مئة وخمسين عامًا»
# ٢ – كتاب «مسلم الثبوت»: دراسة وتحقيق»

بقلم: **الأستاذ عاذب أشرف الأعظمي**(*)

في الأيام الأخيرة، أصدرت أكاديمية شيخ الهند التابعة للجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند كتاب «مسيرة دارالعلوم ديوبند عبر مئة وخمسين عاما» الذي ألّفه الأستاذ الفاضل أديب العربية الكبيرة فضيلة الشيخ محمد ساجد القاسمي أستاذ الفقه والأدب العربي بالجامعة ورئيس تحرير مجلة «النهضة الأدبية» الصادرة عن النادي الأدبي التابع للجامعة، وهو كتاب موسوعي كبير ذو مجلدين يقع في أكثر من ألف صفحة من القطع المتوسط، ويزدان بطباعة فائقة المستوى، وورق أبيض ناصع، وبخط عربي جميل، يعكس الكتاب تعريف دارالعلوم ديوبند أعلامًا وأعمالًا حركية ودعوية وتعليمية وتأليفية وجهادية ومقاومية للأديان والفِرق الضالة.

ونحن في غنى عن القول بأن مؤلف الكتاب هو أحد حملة لواء العروبة في حرم الجامعة والمحتفظين بها تعليمًا وإشاعة، والمحببين لها إلى النشء الجديد، لقد أحب اللغة العربية، فبلغ من الحب والإعجاب والتفاني فيها مبلغه، وفضّل الاشتغال بها على كثير من الشواغل العلمية، فجعلها هدفه الأول والأخير، وقد حرر آلافًا من الصفحات في صورة مبتكرة وأسلوب شيق جميل، وكتاباته تمتاز بالسلاسة وسهولة الأخذ وروعة الترتيب وحسن السبك والانسجام، فاض قلمه بكثير من الكتب والمقالات وترجمة مؤلفات علماء ديوبند إلى اللغة العربية، وعرَّف بالجامعة وأعلامها وعلومهاخير تعريف – علاوة على ما يحظى به من قبول واسع ومكانة كبيرة في تدريس مادة اللغة العربية وتأهيل الطلاب لها، وتدريبهم عليها تحدثًا وكتابة.

**لماذا يجب التعريف بالجامعة وتأريخها وعلمائها:**

لايخفى على أحد أن أكبر المدارس الإسلامية في الهند التي يعرفها العالَم بدارالعلوم ديوبند، جامعة دينية عالمية أُسِّست على التقوى والإخلاص وصفاء النية على أيدي صفوة من العلماء الربانيين المخلصين لله، الذين كانت شيمتهم العملَ في صمت وسذاجة وعاطفة إيمانية صادقة وبُعدٍ عن رياء وسمعة كاذبة، وتفادٍ عن متاع الدنيا وثرواتها، وذلك بعدما انقرضت الدولة المغولية الإسلامية وأفلت شمسها وعادت لاتتكفل تلك المدارس الإسلامية التي كان عمادها على المساعدات الحكومية. وكان لبُناتها ومشايخها إخلاصٌ قوي الأثر، الأمر الذي حوّل

(*) المدرس المساعد بالجامعة.

المدرسة الصغيرة المغمورة في سنوات قلائل إلى صرح إسلامي عملاق، وجعلها تقف في مصاف الجامعات العالمية في جهودها المبتكرة وخدماتها الجُلّى، وخرّجت في أيامها التي تمتد على قرن ونصف من الزمان، عددًا هائلا من المتخرجين في جميع مجالات الدين، وأعدت آلافا مؤلفة من الرجال ذوي البصيرة النافذة، والقدرات والكفاءات الممتازة، وسارت الجامعة في أهدافها مسير الشمس والقمر، وطبّق صيتها الآفاق، وانبرت علما شامخا بين المدارس الإسلامية، ومنارا يشع هداية وضياءً وتعددت خدماتها وأعمالها التعليمية والتربوية والدعوية والجهادية، وعملت. ولا تزال على خدمة التعليم والتربية الإسلامية، وخدمة علوم الكتاب والسنة، وخدمة الدعوة الإسلامية بكل معاني الجامعية والشمول، ودقة الوعي والشعور.

هذا، وقد نهض متخرجو الجامعة وأبناؤها يحملون مشعل الإسلام، وشرّقوا وغرّبوا، فأنشؤوا على غرار الجامعة جامعات ومدارس صغيرة وكبيرة في شتى البلاد ومختلف الأقطار، فتجد الكثير من المدارس المتواجدة في بنغلاديش، وباكستان، وفي ماليزيا، وإندونيسيا، وحتى في دول الكفر والطاغوت: دول أوروبا وأمريكا، وفي أفريقيا خصيصا؛ كل ذلك نابع من هذه الجامعة الديوبندية، وناطق بجهود علمائها ومشايخها بكل صراحة.

**سبب تأليف الكتاب:**

فالجامعة دائبة منذ تأسيسها في مسيرتها، فهي اليوم مركز التربية والثقافة الإسلامية الصافية، وينبوع العلوم والفنون، ومدرسة تعليم الكتاب والسنة، ومحطة الفكر الصحيح المتوارث عن السلف الصالح. ولها دور فاعل، وخدمات يمتد أيامها على قرن ونصف؛ بل وأكثر، وقد سبق تأليف بعض الكتب باللغة الأردية على تاريخ الجامعة ونظامها ومنهجها وفكرها وتراجم علمائها، ولكن كلها كانت باللغة الأردية التي لا يستفيد بها من الكتاب إلا من ينتمون إلى دول شبه القارة الهندية: الهند وباكستان وبنغلاديش، ثم هذه الكتب أو الكُتَيِّبات لم تَتوخَّ استيعاب تاريخ الجامعة ولم تتعرض لسرد جهودها وتراجم أعلامها بشكل مسهب وبسيط، ولم تجمع بين جميع شعب ونواحي تاريخ الجامعة؛ فمنها ما تركز على بيان منهج الديوبندية فحسب، ومنها ما اكتفى بذكر منهج تعليمها وتربيتها، ومنها ما قنع بمجرد سرد أعلامها ومشايخها وأبنائها المعروفين، ومنها ما عُني بذكر تاريخها المبكر وخلفيات تأسيسها وأحوال البلاد آنذاك، ومنها ما نظر إلى استقصاء ميزاتها وخصائصها وخصائص أفرادها وعلمائها التي تبزّ بها الجامعة على مثيلاتها؛ فكانت الحاجة ماسة منذ وقت كثير أن يدوَّن تعريف شامل للجامعة باللغة العربية ليكون إرواءً للغليل، وشفاءً للعليل ويفي بحاجة القراء والراغبين في معرفة تاريخ الجامعة بشكل يستوعب تاريخها الطويل، وتطوراتها الحديثة وإنجازاتها عبر هذه المدة الطويلة، ويسلط الضوء كذلك على أهدافها ومنهجها التعليمي وأقسامها

وإداراتها، وجهودها المضنية في المجالات بشتى أنواعها وشعبها.

وشعورا بهذه الحاجة، وافق حضرات السادة أعضاء مجلس الشورى بالجامعة على إعداد تعريف شامل للجامعة في اللغات العالمية والمحلية: العربية والإنجليزية والأردية والهندوسية، وقد وُزعت عملية تعريف الجامعة هذا على عدد من الأساتذة وأفراد الجامعة المؤهلين، وقد كان إعداد تعريف الجامعة باللغة العربية من حظ المؤلف الكريم فضيلة الشيخ محمد ساجد حفظه الله – أستاذ الفقه والأدب العربي بالجامعة – فقام بهذا العمل على خير ما يرام، مواصلا ليله بنهاره، مستنفدا لجهده ووقته، طائفًا بين دواليب الكتب وبطون المكتبات، حتى أتت جهوده متمثلة في كتاب موسوعي كبير، موزَّع على ثمانية أبواب:

أما الباب الأول فهو يتركز على تاريخ المدارس الإسلامية في الهند وخلفيات تأسيسها، فقد سرد المؤلف تلك المدارس التي شهدت الهند إنشاءها في عهود الملوك المسلمين الأولين، فقد وُضعت النواة الأولى للمدارس الإسلامية في الهند في عهد الملك قطب الدين أيبك ومحمد بختيار الخلجي ولا زالت اهتمامات الملوك المسلمين وأمرائهم بالعلم والقراءة، إلى العهد الأخير، فأنشؤوا مدارس وكتاتيب صغيرة وكبيرة، وكانت دهلي عاصمةُ الهند كثيرة العناية بإنشاء المدارس وتنظيمها، ثم لما انقطع الدعم الحكومي، وعادت المدارس مشلولة اليدين، وكثرت المخاوف على العلوم الإسلامية، وإيمان المسلمين بدؤوا يُنشؤون المدارس اعتمادا على تبرعات الشعب المسلم وفي غنى عن دعم الحكومات. وكانت الجامعة في طليعة هذه المدارس في الهند.

أما الباب الثاني فقد سرد المؤلف أعمال الجامعة التي عاشتها عبر مئة وخمسين عاما حسب الحدود الزمنية فقد قسم المؤلف عصور الجامعة التي عاشتها بدءا من سنة التأسيس وهو ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م وانتهاء إلى سنة ١٤٤٢هـ/٢٠٢٢م – على أربعة عصور، وهذا السرد الزمني المحتوي على أربعة العصور يسلط الضوء على أحوال الجامعة في اختصار، نتعرف من خلال ذلك على تاريخ الجامعة وإنجازاتها وأعمالها المهمة في صفحات معدودة.

والباب الثالث يشرح الأقسام التعليمية والشؤون الإدارية والدعوية والثقافية، ويُعَرِّفنا ببسط وتفصيل مناهجَ الجامعة ودستورها ونظامها القوي الذي تسير عليه الجامعة وتتمسك به عبر السنة، ويؤكد أن جميع إدارات الجامعة وأقسامها فاعلة نشيطة تعمل بجدية ومثابرة واستمرار.

والباب الرابع يركز على بيان المنهج التعليمي للجامعة والمدارس الإسلامية الأخرى في الهند، كما يوضح المنهج الدراسي الذي تتبعه الجامعة لتعليم العلوم الشرعية وتربية الطلاب الوافدين إليها تربيةً إسلامية، ويشرح ما تمتاز به الجامعة من الخصائص التعليمية والمناهج المتوافقة مع طبيعة الطلاب ومستواهم.

وأما الباب الخامس فهو يعير اهتمامه لتعريف علماء ديوبند، عقيدة ومنهجا، وسيرة وسلوكا، فقد

تحدث المؤلف عن كونهم من أهل السنة والجماعة وتمسكهم الشديد بمسلكهم وسَيرهم على الفكر المتوارث المتصل بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابتهم الأخيار، وحرصهم على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن إخلاصهم وابتغائهم لوجه الله في كل عمل، واتباع السلاسل الأربعة في السلوك والإحسان عن توازن واعتدال.

وفي الباب السادس تحدث المؤلف الكريم عن جهود الجامعة في نشر الثقافات الإسلامية والدفاع عنها، وفي تعليم العلوم الإسلامية وإنشاء المعاهد التعليمية، وعن أعمالها في كفاح تحرير الهند، وفي مقاومة الأديان والفرق الضالة وفي مجال التزكية والدعوة الإسلامية.

وفي قليل من الأيام انتشرت شهرة دارالعلوم ديوبند على صعيد العالم، وطبّق صيتها الآفاق، وبلغ قدرها ورَفْعُ شأنِها علماءَ العالمين العربي والإسلامي، فكثر شوقهم لزيارة الجامعة، فزاروها وعبروا عن انطباعات مفعمة بالحب والعقيدة والاحترام، وقد سرد المؤلف الكريم تلك الانطباعات القيمة حسب التسلسل الزمني، وعقد الباب السابع لأجل هذا.

ولما كانت الجامعة عُرفت بإخراج العلماء الأكفاء، والأعلام المتمكنين الذين حملوا رسالة الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها، لم يفت المؤلف ذكرُ هؤلاء النابهين، فقد خص الباب الثامن بتراجم كبار الجامعة ومشايخها وأبنائها المعروفين.

وألحق بآخر الكتاب قوائم أسماء مؤسسي الجامعة والمشرفين عليها، ورؤسائها، ومشيخة الحديث لها، وأعضاء هيئة التدريس سابقًا وحاليًّا، وأعضاء هيئة الإفتاء، وأعضاء المجلس الاستشاري كذلك.

ومقدمة ضافية في مطلع الكتاب بيراعة الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني رئيس الجامعة، تزيد الكتاب قيمةً وبهاءً، وقد تحدث الرئيس الكريم عن تعريف الكتاب ومحتوياته قائلا: «يسرنا أن نقدم إلى القراء والباحثين هذا الكتاب الذي يعطي صورة واضحة عن نشأة الجامعة وخلفياتها ودستورها وأهدافها وخصائصها ومميزاتها، وأسسها الفكرية والمذهبية ومناهجها التعليمية والتربوية وأقسامها وإداراتها وجهودها وجهادها في المجالات التعليمية والتربوية والثقافية والدعوية بالإضافة إلى تراجم مشايخها وعلمائها وأبنائها النابهين وانطباعات وشهادات من زارها من كبار الشخصيات من شتى بلاد العالم. والكتاب حافل بالمعلومات الموثوقة بمراجعها ومصادرها، عسى أن ينفع الباحثين ويفي بحاجتهم، كما يطلع القراء الناطقين بالضاد على تاريخ هذا المعهد العلمي العريق وتطوره».

على كل، فالكتاب بمحتوياته الضافية القيمة ينبغي أن يُصَنَّفَ ضمن الوثائق التاريخية الحافلة بالمظان والمراجع الموثوق بها، وبالمعلومات الغزيرة الثرة، وبأحوال الجامعة وأحداثها وتطوراتها التعليمية والبنائية الممتدة على أكثر من قرن ونصف؛ فلا عجب أن يكون الكتاب موضع عناية للقراء والباحثين والمتطلعين إلى معرفة تاريخ دارالعلوم

ديوبند، ونسأل الله العلي القدير أن ينفع به القراء ويضفي عليه مسحة القبول، آمين.

**٢ – كتاب «مسلم الثبوت» دراسة وتحقيق**

أبصر النور حاليًا كتاب «مسلم الثبوت» في أصول الفقه للعلامة محب الله عبد ا لشكور البهاري (المتوفى ١١١٩هـ) بدراسة وتحقيق الشيخ عثمان غني الهوروي أحد أساتذة الجامعة، يقع الكتاب في ٤٣٣ صفحة، في قطع كبير، نشرته مكتبة الاتحاد بديوبند في حلة قشيبة وغلاف قوي جميل.

و«مسلم الثبوت» في أصول الفقه من المتون التي لاقت رواجا وشيوعا بين أهل العلم وطلبته وتداولته أيدي العلماء، وأقبلوا عليه، وتناولوه بالشرح والتعليق، يُعتبر هذا الكتاب خاتمةَ ما كُتب قديمًا في علم أصول الفقه، ومؤلفه هو الفقيه، الأصوليّ، المنطقيّ، القاضي، محب الله بن عبد الشكور البهاري الهندي (١٠٥٤ – ١١١٩هـ) أحد الأذكياء المشهورين في الآفاق.

وقد رتب المؤلف كتابه على مقدمة وثلاث مقالات وأربعة أصول وخاتمة، أما المقدمة ففي حد أصول الفقه وموضوعه وفائدته، وأما المقالة الأولى ففي المبادئ الكلامية التي تتضمن ثلاثة مباحث: (١) وجوب النظر شرعا، (٢) المعرف وما ينقسم إليه التعريف، (٣) الدليل وما يتشكل فيه من صور الحجة. وأما المقالة الثانية ففي الأحكام، وفيها أربعة أبواب: الأول في الحاكم، والثاني في الحكم، والثالث في المحكوم فيه، وهو فعل المكلف، والرابع في المحكوم عليه، وهو المكلف نفسه. والمقالة الثالثة في المبادئ اللغوية، وفيها تسعة فصول: الأول في المشتقات وشرائطها، والثاني في المشترك والمجمل، والثالث في الحقيقة والمجاز، والرابع في الترادف والتباين، والخامس في الخاص والعام، والسادس في المطلق والمقيد، والسابع في الأمر، والثامن في النهي، والتاسع في دلالة الألفاظ.

وعلى الكتاب شروح كثيرة: من أشهرها شرح «عبد العلي اللكنوي»(١٢٢٥هـ) في «فواتح الرحموت»، و«شرح على مسلم الثبوت» للشيخ «نظام الدين محمد السهالوي»، و«فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت» للعلامة «عبد العلي بن نظام الدين السهالوي»، و«نفائس الملكوت» للمولوي «ولي الله بن حبيب الله اللكهنوي»، و«شرح على مسلم الثبوت» للشيخ «أحمد عبد الحق اللكهنوي»، و«كشف المبهم شرح المسلم» للقاضي «بشير الدين القنوجي»، و«شرح على مسلم الثبوت» للشيخ عبد الحق بن فضل حق الخيرآبادي. وللقاضي «أحمد درويش» شرح «التسهيلات الإلهية في أصول فقه الشافعية والحنفية شرح مسلم الثبوت».

ويزيد الكتاب قيمة وجمالا ذلك التصديرُ الطويل الذيلِ الذي كتبه صاحب الفضيلة العالم الرباني السيد أرشد المدني حفظه الله رئيس هيئة التدريس بالجامعة، وقد كتب فضيلته في مقدمته القيمة عن الأقطاب الأربعة التي يلاحظها الفقيه، وعن شروط الاجتهاد العامة والخاصة بتفصيل وتحقيق مما يجدر بالملاحظة والاعتبار، وقد تحدث كذلك عن تعريف الكتاب بكلماته الضافية:

«إن الواقـف عـلى كتـاب مـسلم الثبـوت – للعلامة قاضي القضاة محب الله البهاري – ليشعر بالفرح والإعجاب بما أوتي ذلك الرجل العبقري من فيض العلم وقد جاء كتابه جامعًا لحقائق علمية ومسائل أصولية بحق لا يُنكر، وجهد لايتصور، والأولى والثانية من مقالاته الثلاث تدرسان في جامعتنا العريقة دارالعلوم ديوبند».

وقد أبان فضيلته دوافع تعليق وتحقيق هذا الكتاب بقوله:

«وبسبب اختصار عباراته كان الدارسون يحتاجون إلى تعليق يحل مغلقاته ويشرح مجملاته، فقام الأخ الفاضل عثمان غني الهوروي أحد أساتذة الجامعة وخريجيها بتحقيق نصوص الكتاب ودراسة القدر المقرر في الدرس وشرحه بأسلوب سهل وعبارة واضحة، وقد عرض علي الأخ هذا العمل القيم، فقرأته بإمعان، وطالعته من مواضع شتى، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدا، وأحسبه سعيا مشكورا، وجهدا علميًّا يفيد الطلاب والعلماء على السواء، ولأول مرة اهتمّ صاحب الدراسة والتحقيق بتنضيد حروفه بالحاسب الآلي ملوَّنًا وفهرسة آياته القرآنية وتخريج أحاديثه تسهيلا للقراء في البحث عن النصوص التي بها استدل المؤلف».

ومحقق الكتاب وهو الشيخ عثمان غني الهوروي يُعد من العلماء الموهوبين والأساتذة ذوي الكفاءات التدريسية الناجحة، يقوم بعملية التدريس وبالأعمال الموكولة إليه بهمة عالية وجد ومثابرة، وله هواية باللغة العربية وبالتصنيف والتأليف، فصدر من يراعه كتب قيمة أكثرها باللغة العربية، وهو رجل خلوق يزينه التواضع وإنكار الذات، ومن شيمته البساطة والسذاجة. وهذا الكتاب ينم واضحا عن مكانته وهوايته في الفقه وأصوله، وولعه بالدراسة والتحقيق.

وأما عمله في الكتاب دراسة وتحقيقًا فهو كما يلي:

أولاً: مقابلة نصوصه بالنسخِ المطبوعة والمخطوطة وتصحيح أخطائه الإملائية.

ثانيا: تنضيد حروفه بالحاسب الآلي وتقطيع العبارات وترصيع الحروف بالحركات والسكنات والتزام الرموز الإملائية، وصياغة الآيات القرآنية بالرسم العثماني الخلاب المميَّز باللون الأحمر والزهراوين.

ثالثا: التعليق على القدر المقرر في الدرس، وإيضاحه وتيسيره وتصحيح متن بقية الكتاب، وهو أكثر من المقرر في الدرس بأضعاف.

رابعا: التعريف الموجز عن الكتب والشخصيات الواردة أسماؤها أثناء المقرر من الكتاب.

وفي نهاية المطاف تخريج الأحاديث التي جاء بها المؤلف وإعداد الفهارس المتنوعة.

ونظرا لقيمة الكتاب وتعليقه وتحقيقه وشرحه سهلا ميسورا يُرجى أن يكون الكتاب نافعا للأساتذة ودارسي أصول الفقه على حد سواء، وأدعو الله العلي القدير أن يتقبل الكتاب بقبول حسن، وأنبته نباتا حسنا، آمين.

## بقية إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

مما يزهِّدني في أرضِ أندلُس

أسماءُ معتضدٍ فيها ومعتمدِ

ألقابُ مملكةٍ في غير موضِعِها

كالهر يحكي انتفاخًا صولةَ الأسدِ

وقال عليّ كرّم الله وجهه: الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق، والتقصير عن الاستحقاق عيّ أو حسد. وقد رُوي أنّ إبليس قال: إذا ظفرت من ابن آدم بثلاث لم أطالبه بغيرها: إذا أُعجب بنفسه، واستكثر عمله، وسُرَّ بمدحه بما لم يفعله.

كان المدح في الشعر العربي أحد الموضوعات الهامة في الحياة البدوية العربية، ويقوم على المدح بصدق وعفوية؛ فإنه كان عبارة عن اعتزاز الشاعر لممدوحه والإعجاب به ثم ظهر اتجاه جديد آخر، وهو التكسب بالمدح في بلاط الملوك والأمراء. وهي ظاهرة جديدة عرفها شعراء الجاهلية واتخذها بعضهم مهنةً يكسبون بها لقمة العيش.

وكان زهير بن أبي سلمى من الشعراء الذين يتصفون بالصدق والواقعية في مدحهم، فلا يقول أحدهم إلا ما يراه صدقًا وصوابًا، ولايصف إلا ما أحس، وشعر به دون مغالاة أو شطط. فإن خطر بباله أنه بالغ في مدحه أو غلا فيه، وأحس أنه يوصَم بخروجه عن الحد المعقول إلى المغالاة في الثناء والمدح أتى بما يبرر وصفه ومدحه، ويجعله مقبولا غير مرذول. فيأتي في مدحه بلفظ «لو» أو «لولا»، أو أورد شرطًا أو جاء بكاد، وما يجري مجراه ليسلم من العيب، ويحترز من النقيصة. وهذا نحو قول زهير:

لَو نَالَ حيٌّ من الدُّنْيَا بمنزلةٍ

أفق السَّمَاء لنالت كَفه الأفقا

ومثل ذلك قوله في مدح هرم أيضا:

لَو كنتَ من شَيءٍ سِوَى بَشَرٍ

كنت المُنِيرَ لِلَيلَـــةِ البـــدرِ

وقوله:

فَلَو كانَ حَمدٌ يُخلِدُ الناسَ لَم تَمُت

وَلَكِنَّ حَمدَ الناسِ لَيسَ بِمُخلِدِ

والحاصل أن ما حكم به عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على شعر زهير قائم على الأساس الذي دعا إليه الإسلام من تجنب التشدق والتفيهق، والتكلف، وإلى البساطة في التعبير والواقعية في الوصف، والصدق في المدح والثناء. فعن أبي ثعلبة الخشني، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحبكم إلي، وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني في الآخرة مساوئكم أخلاقًا، الثرثارون، المتفيهقون المتشدقون» [مسند أحمد:١٧٧٣٢].

وعن ابن عباس، أنه سمع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول على المنبر: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تطروني، كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله، ورسوله» [صحيح البخاري:٣٤٤٥].

وعن الأصمعي يقول: سمعت أعرابيًّا من حكماء العرب يقول: كفى جهلًا أن يمدح المادح بخلاف ما يعرف الممدوح من نفسه.

قال الغزالي في الإحياء(١٥٩/٣): والمدح يدخله ست آفات: أربع في المادح، واثنتان في

الممدوح: فأما المادح: فالأولى أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب. قال خالد بن معدان: من مدح إمامًا أو أحدًا بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه. والثانية: أنه قد يدخله الرياء؛ فإنه بالمدح مظهر للحب؛ وقد لا يكون مضمرًا له، ولا معتقدًا لجميع ما يقوله فيصير به مرائيًا منافقًا. والثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه، ولا سبيل له إلى الإطلاع عليه. وروي أن رجلا مدح رجلا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له عليه السلام: «ويحك قطعت عنق صاحبك، لو سمعها ما أفلح». ثم قال: «إن كان أحدكم لا بد مادحًا أخاه فليقل: أحسب فلانًا، ولا أزكي على الله أحد، حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك». وهذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله: إنه متقٍ، و ورع، و زاهد، وخير، وما يجري مجراه. فأما إذا قال: رأيته يصلي بالليل، ويتصدق ويحج؛ فهذه أمور مستيقنة. ومن ذلك قوله: إنه عدل رضا؛ فإن ذلك خفي؛ فلاينبغي أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرةٍ باطنةٍ. و سمع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلا يثني على رجل فقال: أسافرت معه؟ قال: لا. قال: أخالطته في المبايعة والمعاملة؟ قال: لا. قال: فأنت جاره صباحه ومساءه؟ قال: لا. فقال: والله الذي لا إله إلا هو، لا أراك تعرفه. والرابعة: أنه قد يفرح الممدوح، وهو ظالم أو فاسق، وذلك غير جائز. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق». وقال الحسن: من دعا لظالم بطول البقاء؛ فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه.

والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم، ولا يمدح ليفرح. وأما الممدوح فيضره من وجهين: أحدهما: أنه يحدث فيه كبرًا وإعجابًا. وهما مهلكان. قال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جالسًا ومعه الدرة، والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر، فقال رجل : هذا سيد ربيعة. فسمعها عمر، ومن حوله، وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدرة، فقال: مالي ولك يا أمير المؤمنين؟ قال: مالي ولك، أما سمعتها؟ قال: سمعتها فَمَه؟ قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء، فأحببت أن أطأطيء منك. والثاني: هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به، وفتر، و رضي عن نفسه، ومن أعجب بنفسه قل تشمره. وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرًا . فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك. ولهذا قال عليه السلام: «قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح». وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا». وقال أيضا لمن مدح رجلا: «عقرت الرجل عقرك الله». وقال مطرف: ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي. وقال زياد بن أبي مسلم: ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراءى له الشيطان. ولكن المؤمن يراجع. فقال ابن المبارك: لقد صدق كلاهما، أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام. وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرًا له من أن يثني عليه في وجهه».اهـ

# ولا يمدح الرجل إلا بما فيه

يقول محمد بن سلّام – بالتشديد- بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبو عبد الله (المتوفى:٢٣٢هـ) في كتابه القيم: «طبقات فحول الشعراء»: «أخبرني عيسى بن يزيد بن دأب بإسناد له عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال لي عمر: أنشدني لأشعر شعرائكم. قلت: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير. قلت: وكان كذلك؟ قال: كان لايعاظل بين الكلام، ولا يتبع وحشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه».

ما أحسن قول عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في وصف الشاعر زهير بن أبي سلمى، و تعليله لإيثاره أبياته ليستمع على لسان عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. فالإطراء في المدح، وكيل الثناء لمن لايستحقه، ولايستوجبه من الخصال المبغوضة عند الله تعالى. وهذه الخصلة الشنيعة أصبحت ظاهرةً سائدةً في المجتمع البشري المسلم بلهَ غيره. ويستوي في ذلك الأفراد و الجماعات حتى بعض القيادات التي يحسن الناس الظن بها، وتحل في قلوبهم مكانا أسمى و أجل من سفاسف الأمور وخصال الدون. فكم منا من يمدح صاحبه بما ليس فيه، ويبالغ في إطرائه وكيل الثناء له؟ ويخرج في مدحه عن الحد المعقول، فيدخل في باب المغالاة؟ وما أكثر من يحب أن يُحمد لما يفعل، ويمطر عليه الناسُ وابلاً من المدح والثناء العاطر بما لم يتصف به، وربما لم يخطر بباله الاتصاف به، وأشارت الآية القرآنية إلى فشو هذه الظاهرة في المنافقين وغيرهم في فاتحة الإسلام، فيقول الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٨٨].

كم شهد كاتب هذه السطور، وناس آخرون في كثير من الحفلات الدينية وغير الدينية التي تعقد من حين لآخر في مختلف أصقاع البلاد ونواحيها بهدف الترغيب في الخصال الحميدة، والتقيد بالشعائر الإسلامية، والتحلي بالأخلاق النبيلة، أن مقدم البرنامج يصف الخطيب أو المقرئ بما ليس فيه معشار ما وصفه به، ويلقبه بألقاب فارغة لامعنى لها، ولايصدق على الذي قيل له من قريب أو بعيد، ويُشرب صاحبَه ما لم يَشرب، ويدعي فيه مَا لم يَفْعَله عن جهل أو عن غرة. والذي قيل فيه كل ذلك يهتز فرحًا وينتفخ أشبه بالهر الذي يحكي انتفاخًا صولة الأسد، كما يقول أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى:٤٦٣هـ) – حين سألوه أن يزور الأندلس- بيته الشهير الذي يكاد يصير مضرب المثل:

(البقية على ص ٥٤)

**أبو عائض القاسمي المباركفوري**